

رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٧﴾

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ وَتَصَابَوْكَ، فَاسْتَعْنِ وَفُوضْ إِلَيْهِ فَهُوَ كَافِيكَ مَعْرِتَهُمْ وَلَا يَضْرُوكُ وَهُوَ نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ. وقرئ: العَظِيمُ بِالرَّفْعِ، وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْعَرْشُ لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ، وَعَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: آخِرُ آيَةِ نَزَلَتْ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْقُرْآنُ إِلَّا آيَةٌ آيَةٌ وَحَرْفًا حَرْفًا مَا خَلَا سُورَةً، بَرَاءَةٌ وَقُلُّهُ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، فَإِنَّمَا أَنْزَلْنَا عَلَيَّ وَمَعَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ صَفِّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ» (2).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس مكية

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾

﴿الرَّ﴾ تَعْدِيدٌ لِلحُرُوفِ عَلَى طَرِيقِ التَّحْدِيدِ وَ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ السُّورَةُ مِنَ الْآيَاتِ وَالْكِتَابِ السُّورَةِ وَ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذُو الْحِكْمَةِ لِاسْتِمَالِهِ عَلَيْهَا وَنَطْقِهِ بِهَا، أَوْ وَصَفٍ بِصِفَةِ مُحَدِّثِهِ قَالَ الْأَعْمَشِيُّ:

وغيره تأتي الملوك حكيمة قد قلتها ليقال من ذاقها

أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحِيََ إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ وَبَشِّرَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكُفْرِيُّونَ إِنَّكَ هَذَا لَسَجْرٌ يُبِينُ ﴿٢﴾

الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه و﴿أَنْ أَوْحِيََ﴾ اسْمُ كَانٍ وَعَجَبًا خَبَرُهَا وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: عَجِبَ فَجَعَلَهُ اسْمًا وَهُوَ نَكْرَةٌ وَأَنْ أَوْحِيََ خَبَرًا وَهُوَ مَعْرِفَةٌ كَقَوْلِهِ: يَكُونُ مِنْ أَجْلِهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ. وَالْأَجُودُ أَنْ تَكُونَ كَانٌ تَامَةً وَإِنْ أَوْحِيََ بَدَلًا مِنْ عَجَبٍ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: فَمَا مَعْنَى اللَّامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْلِكَ أَكَانَ عِنْدَ النَّاسِ عَجَبًا؟ قُلْتُمْ: مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ جَعَلُوهُ لَهُمْ أَعْجُوبَةً يَتَعَجَّبُونَ مِنْهَا، وَنَصَبُوهُ عَلَمًا لَهُمْ يُوْجِهُونَ نَحْوَهُ اسْتِهْزَاءً هُمْ وَإِنْكَارَهُمْ، وَلَيْسَ فِي عِنْدَ النَّاسِ هَذَا الْمَعْنَى وَالَّذِي تَعَجَّبُوا مِنْهُ أَنْ يُوْحِيَ إِلَى بَشَرٍ، وَأَنْ يَكُونَ رَجُلًا مِنْ أَقْنَاءِ رَجَالِهِمْ دُونَ عَظِيمٍ مِنْ عَظَمَاتِهِمْ، فَقَدْ كَانُوا يَقُولُونَ: الْعَجَبُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجِدْ رَسُولًا يُرْسِلُهُ إِلَى النَّاسِ إِلَّا يَتِيمًا أَبِي طَالِبٍ، وَأَنْ يَذْكَرَ لَهُمْ

﴿فَإِنَّمَا أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ لِتَعْلَمُونَهَا مِنَ الْعَرَبِ وَرَبُّكُمْ عَلِيمٌ بِالذَّاكِرِينَ﴾ كَفَرَهُمْ؛ لَأَنَّهُمْ كَلَّمُوا جِدُوا بِتَجْدِيدِ اللَّهِ الْوَحْيِ كَفَرًا وَنِفَاقًا أَزَادَ كَفَرَهُمْ وَاسْتَحْكَمَ وَتَضَاعَفَ عِقَابُهُمْ.

أَوَّلًا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُنْتَوُونَ فِي كُلِّ عَاِمٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٨﴾

قَرِئٌ: أَوْ لَا يَرُونَ بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ ﴿يَفْتَنُونَ﴾ يَبْتَلُونَ بِالْمَرَضِ وَالْقَحْطِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ بَلَاءِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَنْتَهُونَ وَلَا يَتُوبُونَ عَنْ نِفَاقِهِمْ وَلَا يَذْكُرُونَ وَلَا يَعْتَبِرُونَ وَلَا يَنْظُرُونَ فِي أَمْرِهِمْ، أَوْ يَبْتَلُونَ بِالْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَعْلَبُونَ أَمْرَهُ وَمَا يَنْزِلُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ نَصْرَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ، أَوْ يَفْتَنُهُمُ الشَّيْطَانُ فَيَكْتَبُونَ وَيَنْقُضُونَ الْعَهْدَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَيَقْتَلُهُمْ وَيَنْكُلُ بِهِمْ ثُمَّ لَا يَنْزَجِرُونَ.

وَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نُنزِّلُ إِلَيْكَ مِنْهَا مَثَلًا لِمَنْ كَفَرَ مِنْ أَهْلِ قَوْمٍ نُنزِّلُهَا عَلَيْهِمْ لَعْنًا مِنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٩﴾

﴿نُنزِرُ بَعْضَهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ تَغَامَزُوا بِالْعَيُونِ إِتْكَارًا لِلوَحْيِ وَسَخْرِيَّةً بِهِ قَائِلِينَ ﴿هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِتَنْصَرِفَ فَإِنَّا لَا نَصْبِرُ عَلَى اسْتِمَاعِهِ وَيَغْلِبُنَا الضَّحْكَ فَخَفَافَ الْإِنْفِصَاحِ بَيْنَهُمْ، أَوْ تَرَامَقُوا يَتَشَاوَرُونَ فِي تَدْبِيرِ الْخُرُوجِ وَالْإِنْسِلَالِ لَوَإِذَا يَقُولُونَ: هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فِي عَيْبِ الْمُنَافِقِينَ ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (1) دَعَاءٌ عَلَيْهِمْ بِالْخِذْلَانِ وَيَصْرِفُ قُلُوبَهُمْ عَمَّا فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنَ الْإِنشِرَاحِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لَا يَتَدَبَّرُونَ حَتَّى يَفْقَهُوا.

لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٠﴾

﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ مِنْ جِنْسِكُمْ وَمِنْ نَسَبِكُمْ عَرَبِيٌّ قَرَشِيٌّ مِثْلَكُمْ، ثُمَّ نَكَرَ مَا يَتَّبِعُ الْمَجَانِسَةَ وَالْمُنَاسِبَةَ مِنَ النَّتَاجِ بِقَوْلِهِ ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أَيُّ شَدِيدٌ عَلَيْهِ شَاقٌ لَكُونَهُ بَعْضًا مِنْكُمْ عَنِتُّكُمْ وَلِقَاؤُكُمْ الْمَكْرُوهَ، فَهُوَ يَخَافُ عَلَيْكُمْ سُوءَ الْعَاقِبَةِ وَالْوُقُوعِ فِي الْعَذَابِ ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ حَتَّى لَا يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ اتِّبَاعِهِ وَالِاسْتِسْعَادِ بِدِينِ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ مِنْكُمْ وَمِنْ غَيْرِكُمْ ﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾. وقرئ: مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَيُّ: مِنْ أَشْرَفِكُمْ وَأَفْضَلِكُمْ، وَقِيلَ: هِيَ قِرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفَاطِمَةُ وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقِيلَ: لَمْ يَجْمَعْ اللَّهُ اسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ لِأَحَدٍ غَيْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي قَوْلِهِ: ﴿رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ

(1) قال أحمد: يحتمل الدعاء، كما فسره، ويحتمل الإخبار بأن الله صرف قلوبهم، أي: منعها من تلقي الحق بالقبول، ولكن الزمخشري يفرغ من جعله خبراً؛ لأن صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده بناء على قاعدة الصلاح، والأصلح، ولا يزال يؤول الظاهر، إذا اقتضى ذلك، كما مر له في قوله ختم الله على قلوبهم، فلما احتملت هذه الآية الدعاء، والخبر على حد سواء =

(2) ذكره الثعلبي في تفسيره.

للك العظيم الموصوف بما وصف به هو: ربكم، وهو الذي يستحق منكم العبادة ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فإن أدنى التفكر والنظر ينبهكم على الخطأ فيما أنتم عليه.

إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾.

﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: لا ترجعون في العاقبة إلا إليه فاستعملوا للفتنة ﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿إليه مرجعكم﴾ و﴿حقاً﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿وعد الله﴾ فإنه يبدو الخلق ثم يعيدهم استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه وهو: أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو: جزاء المكلفين على أعمالهم، وقرئ: ﴿أنه يبدو الخلق﴾ بمعنى: لأنه، أو هو منصوب بالفعل الذي نصب وعد الله أي: وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته، والمعنى: إعادة الخلق بعد بئنه.

وقرئ: وعد الله على لفظ الفعل ويبدئ من أبدأ، ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً أي: حق حقاً بدأ الخلق كقوله: أحقاً عباد الله أن لست جائئاً ولا ذامباً إلا علي رقيب وقرئ: حق أنه يبدو الخلق، كقولك: حق أن زيداً منطلق ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل وهو متعلق بيجزي والمعنى: ليجزيهم بقسطه ويوفيه أجورهم أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً؛ لأن الشرك ظلم قال الله تعالى: ﴿أَنَّ الشُّرْكَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾^(١) والعصاة ظلام أنفسهم وهذا أوجه لمقابلة قوله: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ سُبْحًا وَالنَّجْمَ نُورًا وَجَعَلَ مَنَازِلَ لِمَنَازِلَ عَدَدَ اللَّيْلِ وَالْحَسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي آيَاتِنَا لَآيَاتٍ وَالنَّجْمِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِكَيْتُمْ لِتَقُولُوا بِحَقِّ اللَّهِ أَتَمًّا ﴿٦﴾.

الياء في ﴿ضياء﴾ منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها، وقرئ: ضياء بهمزة بينهما ألف على القلب بتقديم اللام على العين كما قيل: في عاق عقا والضياء أقوى من النور ﴿وقدره﴾ وقدر القمر والمعنى وقدر مسيره ﴿منازل﴾ أو قدره ذا منازل كقوله تعالى: ﴿والقمر قدرناه منازل﴾^(٢) و﴿الحساب﴾ وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالي ﴿ذلك﴾ إشارة إلى المنكور أي: ما خلقه إلا ملتبساً بالحق الذي هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً. وقرئ: يفصل بالياء.

البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب؛ لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشرًا مثلهم، وقال الله تعالى: ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾^(١) وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً؛ لأن الله تعالى إنما يختار من استسب الاختيار لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوة، الغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾^(٢) والبعث للجزاء على الخير والشر هو: الحكمة العظمى فكيف يكون عجباً؟ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء ﴿أن أنذر الناس﴾ أن هي المفسرة؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول، ويجوز أن تكون المخففة من الثقلية، وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشأن قولنا: أنذر الناس و﴿إن لهم﴾ الباء معه محذوف ﴿قدم صدق عند ربهم﴾ أي: سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة.

فإن قلنت^(٣): لم سميت السابقة قدمًا؟ قلت: لما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدمًا كما سميت النعمة يداً؛ لأنها تعطى باليد، وباءاً لأن صاحبها يبيع بها، فقيل: فلان قدم في الخير، وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظيمة، وقيل: مقام صدق ﴿إن هذا﴾ إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿للسحر﴾ ومن قرأ لساحر، فهذا إشارة إلى رسول الله ﷺ وهو ليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرًا، وفي قراءة أبي: ما هذا إلا سحر.

إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُبْدِئُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَلِكَ عِزُّ اللَّهِ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

﴿يلبس﴾ يقضي ويقدر على حسب مقتضى الحكمة، ويفعل ما يفعل المتحري للصبوب الناظر في أبعاد الأمور وعواقبها لئلا يلقاه ما يكره آخرًا و﴿الأمور﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش.

فإن قلنت: ما موقع هذه الجملة؟ قلت: قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السموات والأرض مع بسطتها واتساعها في وقت يسير وبالأستواء على العرش، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره، وكذلك قوله: ﴿ما من شئ إلا من بعد إننه﴾ دليل على العزة والكبرياء كقوله: ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن﴾^(٤) و﴿تلكم﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة أي:

(1) سورة الإسراء، الآية: 95. = كما يغلب في الحقيقة، والله أعلم.

(2) سورة سبأ، الآية: 37.

(3) قال أحمد: لم يرد في سابقة السوء تسميتها قدمًا، إما لأن المجاز لا يطرد، وإما أن يكون مطردًا، ولكن غلب العرف على قصرها، =

(4) سورة لقمان، الآية: 13.

(5) سورة يس، الآية: 39.

الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور؟
قُلْتُ: الأمر كذلك، الا ترى كيف أوقع الصلة مجموعاً فيها
بين الإيمان والعمل كانه قال: إِنَّ الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ
وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، ثم قال: بِلِيْمَانِهِمْ أَي: بليمانهم هذا المضموم
إليه العمل الصالح وهو بين واضح لا شبهة فيه.

دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحَنُّنُهُمْ فِيهَا سَلَّمَ وَإِخْرَجَ دَعْوَتَهُمْ أَنْ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾.

﴿دعواهم﴾ دعاؤهم؛ لأنَّ اللّهُمَّ نداء الله ومعناه: اللهم إنا
نسبحك كقول القانت في دعاء القنوت: اللهم إياك نعبد، ولك
نصلي ونسجد، ويجوز أن يراد بالدعاء العبادة: ﴿واعتزلكم
وما تدعون من دون الله﴾⁽⁶⁾ على معنى: أن لا تكليف في
الجنة ولا عبادة، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمده،
وذلك ليس بعبادة إنما يلهونه فينطقون به تلتذاً بلا كلفة
كقوله تعالى: ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء
وتصدية﴾⁽⁶⁾ ﴿وأخر دعواهم﴾ وخاتمة دعائهم الذي هو
التسبيح ﴿أن﴾ يقولوا ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ ومعنى:
وتحيتهم فيها سلام أن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام،
وقيل هي: تحية الملائكة إياهم إضافة للمصدر إلى
المفعول، وقيل: تحية الله لهم، وأن هي المخففة من الثقيلة
وأصله أنه الحمد لله على أن الضمير للشأن كقوله: أن
هالك كل من يحفي ويتعلل. وقرئ: أن الحمد لله بالتشديد
ونصب الحمد.

﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ اشْرَاطَ اسْتِجَابَتِهِمْ بِالْخَيْرِ لَفَعَضَ إِلَيْهِمْ
أَجَلَهُمْ فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾^(٧).

أصله ﴿ولو يعجل الله للناس الشر﴾ تعجيله⁽⁷⁾ لهم
الخير فوضع ﴿استجبالهم بالخير﴾ موضع تعجيله لهم
الخير إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبتهم حتى
كان استجبالهم بالخير تعجيل لهم، والمراد: أهل مكة،
وقولهم: ﴿فأمطر علينا حجارة﴾⁽⁸⁾ من السماء يعني: ولو

خصَّ المتقين؛ لأنهم يحذرون العاقبة، فيدعوهم الحذر
إلى النظر والتدبر.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوْلَيْتَكَ مَأْرَهُمْ نَتَّأَرْ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾.

﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعونه أصلاً ولا يخطرונה
ببالهم لغفلتهم المستولية عليهم المذهلة باللذات وحب
العاجل عن التفتن للحقائق، أو لا ياملون حسن لقاءنا كما
يامله السعداء، أو لا يخافون سوء لقاءنا الذي يجب أن
يخاف ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ من الآخرة وأثروا القليل
الفاني على الكثير الباقي كقوله تعالى: ﴿أرضيتم بالحياة
الدنيا من الآخرة﴾⁽¹⁾ ﴿واطمأننوا بها﴾ وسكنوا فيها
سكون من لا يززع عنها فبنوا شديداً وأملوا بعيداً.

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أَوْلَيْتَكَ مَأْرَهُمْ نَتَّأَرْ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾.

﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ يسددهم⁽²⁾ بسبب إيمانهم
للاستقامة على سلوك السبيل المؤدي إلى الثواب ولذلك
جعل ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ بيانياً له وتفسيراً؛ لأنَّ
التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، ويجوز أن يريد
يهديه في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة كقوله
تعالى: ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين
أيديهم وبإيمانهم﴾⁽³⁾ ومنه الحديث: ﴿إنَّ المؤمن إذا خرج
من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول له: أنا
عملك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، والكافر إذا خرج من
قبره صور له عمله في صورة سيئة فيقول له: أنا عملك
فينطلق به حتى يدخله النار﴾⁽⁴⁾.

فإن قُلْتُ: فلقد دلت هذه الآية على أنَّ الإيمان الذي
يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة هو:
إيمان دقيد، وهو: الإيمان المقرون بالعمل الصالح والإيمان

(1) سورة التوبة، الآية: 38.

(2) قال احمد: هو يقَرَّر بذلك زعمه في أنَّ شرط دخول الجنة العمل
الصالح، وأنَّ من لم يعمل مخلد في النار، كالكافر، واني له ذلك،
وقد جعل الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان، فقال يهديهم
ربهم بإيمانهم، وقول الزمخشري أنَّ المراد إضافة العمل لا
ينتهض عن حيز الدعوى، فإنَّ الله لم يعمل بغير الإيمان، وإن جرى
لغيره نكر أولاً، فلا يلزم إجراؤه ثانياً، ولا محوج إليه، وشبهته أنَّ
الإيمان المجهول سبباً مضاف إلى ضمير الصالحين، فيلزم أخذ
الصلاح قيماً في التسبب، وهو ممنوع، فإنَّ الضمير إنما يعود
على الذات، لا باعتبار الصفات، وقد تقدمت لهذه المباحثة أمثال،
وأشكال، والله الموفق.

(3) سورة الحديد، الآية: 12.

(4) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه كتاب: الزهد، باب: كلام ابن عمر
324/13

(5) سورة مريم، الآية: 48.

(6) سورة الأنفال، الآية: 35.

(7) قال احمد: وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشري الحسنة التي تقوم
على دقة نظره شاهدة وبينية، ولا يكاد وضع المصدر مؤكداً، أو
مقارناً لغير فعله في الكتاب العزيز، يخلو من مثل هذه الفائدة
الجليلة، والنحاة غابتهم أن يقولوا في قوله تعالى، والله أنبتكم من
الارض نباتاً أنه أجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة، أو
هذا المصدر لفعل دل عليه المنكسر تقديره نبت نباتاً، ولا يزيدون
على ذلك، وإذا رجع اللفظ قريبته، ونأجى فكرته هل قرن
المصدر في كتاب بغير فعله لفائدة، أو لا تسور بلطف النظر على
مثل هذه الفوائد العلية مراتبها، فالفائدة، والله أعلم في اقتران قوله
نباتاً، بقوله أنبتكم التنبيه على تحتم نفوذ القدرة في المقدور،
وسرعة إمضاء حكمها، حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم، أي:
إذا وجد من الله الإنبات وجد لهم النبات حتماً، فكان أحد الأمرين
عين الآخر، فقرن به، والله أعلم.

(8) سورة الأنفال، الآية: 32.

تأكيداً لنفي إيمانهم وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم وأن الإيمان مستبعد منهم، والمعنى: أن السبب في إهلاكهم تكذيبهم الرسل وعلم الله أنه لا فائدة في إمهالهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثة الرسل ﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الجزاء يعني: الإهلاك ﴿نجزي﴾ كل مجرم وهو: وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله ﷺ وقرى: يجزي بالياء.

ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ عَشِيرَ فِي الْأَرْضِ مِنْ أُمَّةٍ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَمَلُّونَ ﴿٧﴾

﴿ثم جعلناكم﴾ الخطاب للذين بعث إليهم محمد ﷺ أي: استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكتنا ﴿لننظر﴾ اتعلمون خيراً أم شراً فنعاملكم على حسب عملكم و﴿كيف﴾ في محل النصب بتعلمون لا ينتظر؛ لأن معنى الاستفهام فيه يجب أن يتقدم عليه عامله.

فإن قلنا⁽¹⁾: كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة؟ قلنا: هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشيء موجوداً، شبه بنظر الناظر وعيان المعين في تحققه.

وَإِذَا تُلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِئْسَ الْقَائِلُونَ ﴿٨﴾ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بِشْرَانِ عَرِّ هَذَا أَوْ بَدَلُهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَ مِنْ تِلْقَائِي قَوْمًا إِنْ أَرَادُوا إِلَّا مَا يُرِيدُونَ إِلَهًا إِلَّا أَنَا إِنِّي عَصِيتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٩﴾

غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأوثان والوعيد للمشركين فقالوا: ﴿أنت بقرآن﴾ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك تتبعك ﴿أو ببله﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط نكر الآلهة ونم عبادتها، فأمر بأن يجيب عن التبديل؛ لأنه داخل تحت قدرة الإنسان وهو: أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل، وأن يسقط نكر الآلهة، وأما الإتيان بقرآن آخر فغير مقدور عليه للإنسان ﴿ما يكون لي﴾ ما ينبغي لي وما يحل كقوله تعالى: ﴿ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾⁽²⁾ ﴿أن أبيله من تلقاء نفسي﴾ من قبل نفسي، وقرى: بفتح التاء، من غير أن يأمرني بذلك ربي ﴿إن تتبع إلا ما يوحى إلي﴾ لا آتي ولا أتر شيئاً من نحو ذلك إلا متبعاً لوحى الله وأوامره، إن نسخت آية تبعت النسخ، وإن بلبت آية مكان آية تبعت التبديل، وليس لي تبديل ولا نسخ ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾ بالتبديل والنسخ من عند نفسي ﴿عذاب يوم عظيم﴾.

فإن قلنا: أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا: ﴿أنت بقرآن غير هذا﴾؟ قلنا: بلى

عجلنا لهم الشر الذي دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجيبهم إليه ﴿لنقضي إليهم أجلهم﴾ لأميتوا وأهلكوا، وقرى: لنقضي إليهم أجلهم على البناء للفاعل وهو الله عز وجل، وتنصره قراءة عبد الله: لنقضنا إليهم أجلهم.

فإن قلنا: فكيف اتصل به قوله: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ وما معناه؟ قلنا: قوله: ﴿ولو يجعل الله﴾ متضمن معنى نفي التعجيل كأنه قيل: ولا نعجل لهم الشر ولا نقضي إليهم أجلهم فنذرهم ﴿في طغيانهم﴾ أي: فمنهلم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم إلزاماً للحجة عليهم.

وَإِذَا مَنَّ الْأَسِنَّةُ الْأَعْرَابَ لِحِمْيَرٍ بَلَدًا كَفَنَّا عَنْهُ شُرَكَاءَ مَا كَانُوا يَدْعُونَ إِلَيْهِ أَلِيًّا كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُتَرَفِينَ مَا كَانُوا يَمَلُّونَ ﴿١٠﴾

﴿لجنبه﴾ في موضع الحال بدليل عطف الحاليين عليه أي: دعانا مضطجعا ﴿أو قاعداً أو قائما﴾.

فإن قلنا: فما فائدة نكر هذه الأحوال؟ قلنا: معناه: أن الضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها: كان منبطحاً عاجز النهض متخاذل النوم، أو كان قاعداً لا يقدر على القيام، أو كان قائماً لا يطيق المشي، والمضطرب إلى أن يخف كل الخفة ويرزق الصحة بكمالها والمسحة بتمامها، ويجوز أن يراد أن من المضروبين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفراش، ومنهم من هو أخف، وهو: القار على القعود، ومنهم المستطيع للقيام، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء؛ لأن الإنسان للجنس ﴿مز﴾ أي: مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ونسي حال الجهد، أو مز عن موقف الإبتهاال والتضرع لا يرجع إليه كأنه لا عهد له به ﴿كان لم يدعنا﴾ كأنه لم يدعنا فحفف وحذف ضمير الشأن قال: كان ثدياه حقان. ﴿كذلك﴾ مثل تلك التزيين ﴿زين للمترفين﴾ زين الشيطان بوسوسته، أو الله بخذلانه وتخليته ﴿ما كانوا يعملون﴾ من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات.

وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا يَتُوبُونَ ﴿١١﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾

﴿لما﴾ ظرف لأهلكنا والواو في ﴿وجاءتهم﴾ للحال أي: ظلموا بالتكذيب وقد جاءتهم رسالهم بالحجج والشواهد على صديقهم وهي: المعجزات وقوله: ﴿وما كانوا ليؤمنوا﴾ يجوز أن يكون عطفاً على ﴿ظلموا﴾ وأن يكون اعتراضاً، واللام لتأكيد النفي يعني: وما كانوا يؤمنون حقاً،

= دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة، والجسمية، فلا نعيده، والله الموفق.

(2) سورة المائدة، الآية: 116.

(1) قال أحمد: وكنت أحسب أن الزمخشري يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله، والجمع بين هنتين النزغتين، عقيدة طائفة من القدرية، يقولون إن الله لا يرى، ولا يرى تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، وتقدم إبطال =

عمرًا ﴿وقرى: عمرًا بالسكون يعني: فقد أقمت فيما بينكم يافعًا وكهلاً فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان ففتهموني باختراعه ﴿أفلا تعقلون﴾ ففعلوا أنه ليس إلا من الله لا من مثلي، وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم: ﴿أنت بقرآن غير هذا﴾ من إضافة الافتراء إليه.

مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّكُمْ لَا يُنصِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾

﴿ممن افترى على الله كذباً﴾ يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في قولهم: إنه نو شريك ونو ولد، وأن يكون تفادياً مما أضافه إليه من الافتراء.

رَبِّدُّوكَ مِنْ دُورِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْرِكُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَكْفُرُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨﴾

﴿ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ الأوثان التي هي جماد لا تقدر على نفع ولا ضرر، وقيل: إن عبودها لم تنفعهم وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، ومن حق المعبود أن يكون مثيباً على الطاعة معاقباً على المصيبة، وكان أهل الطائف يعبدون اللات، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافاً ونائلة ﴿و﴾ كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴿وعن النضر بن الحرث: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى ﴿اتنبتون الله بما لا يعلم﴾ تخبرونه بكونهم شفعاؤه عنده وهو إنباء بما ليس بمعلوم لله، وإذا لم يكن معلوماً له وهو العالم الذات المحيط بجميع المعلومات لم يكن شيئاً؛ لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه فكان خبراً ليس له مخبر عنه.

فإن قلت: كيف أنبؤا الله بذلك؟ قلت: هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأن الذي أنبؤا به باطل غير منطوق تحت الصحة، فكانهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به علمه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه، وقرى: اتنبؤن بالتخفيف، وقوله: ﴿في السموات ولا في الأرض﴾ تأكيد لنفيه؛ لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم ﴿تشركون﴾ قرى: بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية أي: عن الشركاء الذين يشركونهم به، أو عن إشراكهم.

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُتِحَ بَيْنَهُمْ فِي مَا بَيْنَهُمْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ

﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل وهابيل، وقيل: بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين دياراً ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾

ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز، وكانوا يقولون: ﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ ⁽¹⁾ ويقولون: ﴿افترى على الله كذباً﴾ ⁽²⁾ فينسبون إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله، مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصاحتها وبلغائها إذا عجزوا عنه كان الواحد منهم أعجز.

فإن قلت: لعلمهم أرادوا اثت بقرآن غير هذا أو ببله من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته؟ وأراد بقوله: ﴿ما يكون لي﴾ ما يتسهل لي وما يمكنني أن أبليه قلت: يرده قوله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي﴾.

فإن قلت: فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح قلت: الكيد والمكر، أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ففيه أنه من عندك وأنت قادر على مثله فأبدل مكانه آخر، وأما اقتراح التبديل والتغيير فللمطمع ولاختبار الحال وأنه إن وجد منه تبدال فيما أن يهلكه الله فينجوا منه أو لا يهلكه فيسخرها منه ويجعلوا التبدال حجة عليه وتصحيحاً لافتراءه على الله.

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ يَوْمَ فَعَدَّ لَيْتُ فِيكُمْ عُمَرًا مِثْلَ بِلْقَيْسِ أَخِيًّا مَعْلُومًا ﴿٩﴾

﴿لو شاء الله ما تلوته عليكم﴾ يعني: إن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحدائه أمراً عجيبياً خارجاً عن العادات وهو: أن يخرج رجل أمي لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً ينهر كل كلام فصيح ويعلو على كل منثور ومنظوم، مشحوناً بعلم من علوم الأصول والفروع وأخبار مما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرانيكم أربعين سنة تطلعوز على أحواله ولا يخفي عليكم شيء من أسرارها، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه والصقهم به ﴿ولا أدراكم به﴾ ولا أعلمكم به على لساني، وقرأ الحسن: ولا أدراكم به على لغة من يقول: أعطاته وأرضاته في معنى: أعطيته وأرضيته، وتعضده قراءة ابن عباس ﴿ولا أنذرتكم به﴾، ورواه الفراء: ولا أدراكم به بالهمز وفيه وجهان: أحدهما: أن تقلب الالف همزة كما قيل: وليات بالحج، ورثات الميث، وحلات السويق، وذلك لأن الالف والهمزة من واد واحد، ألا ترى أن الالف إذا مستها الحركة انقلبت همزة، والثاني: أن يكون من دراته إذا نفعته وأدراته إذا جعلته دارثاً، والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤني بالجدال وتكذبوني، وعن ابن كثير: ولأدراكم به بلام الابتداء لإثبات الإراء ومعناه: لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولأعلمكم به على لسان غيري، ولكنه يمن علي من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة ورأني لها أهلاً دون سائر الناس ﴿فقد لبثت فيكم﴾

تعالى نبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام ﴿إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ﴾ إعلام بأن ما تظنونه خافياً مطوياً لا يخفى على الله وهو منتقم منكم. وقرئ: يَمَكُونُ بالثاء والياء وقيل: مَكْرَهُمْ قوله: سقينا بنوء كذا، وعن أبي هريرة: إِنَّ اللَّهَ لِيَصْبِحُ الْقَوْمَ بِالنَّعْمَةِ وَيَمْسِيهِمْ بِهَا فَتَصْبِحُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِهَا كَافِرِينَ يَقُولُونَ: مطرنا بنوء كذا⁽¹⁾. قرأ زيد بن ثابت: ينشركم ومثله قوله: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾⁽²⁾ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون⁽³⁾.

هُوَ الَّذِي يَسِّرُكَ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتَ فِي فَئْكَ وَجَرْنَ رِيحٍ بِرِيحٍ لَّيِّنَةٍ وَوَجَّعْنَا لَهَا جَهَنَّمَ رِيحًا عَصِيفًا لَّيِّنَةً هُمُ الَّذِي يَنْزِلُ فِي السَّمَاوَاتِ لِيُنزِلَ فِيهَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُخْرِجُ بِهِ الْحَبَّ وَالنَّخْلَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخْلَ يُسْقَىٰ مِنْ لَدُنْهَا فَتَسْقَىٰ مِنْهُ الثَّمَارُ لَكِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَفِيٌّ إِنَّ اللَّهَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾

فإن قلنت: كيف جعل الكون في الفلك غاية للتيسير في البحر، والتيسير في البحر إنما هو بالكون في الفلك؟ قلنت: لم يجعل الكون في الفلك غاية للتيسير في البحر، ولكن مضمون الجملة الشرطية الواقعة بعد حتى بما في حيزها كانه قيل: يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن للهلاك والدعاء بالإنقاذ⁽⁴⁾.

فإن قلنت: ما جواب إذا؟ قلنت: جاءت.

فإن قلنت: فدعوا؟ قلنت: بدل من ظنوا! لأن دعاءهم من لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به.

فإن قلنت: ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة؟ قلنت: المبالغة، كانه ينكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح.

فإن قلنت: ما وجه قراءة أم الدراء: في الفلكي بزيادة يائي النسب؟ قلنت: قيل: هما زائدتان كما في الخارجي والأحمري، ويجوز أن يراد به اللج والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه، والضمير في ﴿جرين﴾ للفلك؛ لانه جمع فلك كالأسد في فعل أخي فعل، وفي قراءة أم الدراء

وهو: تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة ﴿لِقْضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ عاجلاً فيما اختلفوا فيه، ولميز المحق من المبطل، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف وتلك دار ثواب وعقاب.

وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا آيَةٌ مِنْ رَبِّنَا قُلْ إِنَّمَا الْتَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ السَّمٰطٰتِ ﴿١٠﴾

وقالوا: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أرادوا آية من الآيات التي كانوا يفترحونها، وكانوا لا يعتدون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات، بقيقة المسلك من بين المعجزات، وجعلوا نزولها كلا نزول، وكأنه لم ينزل عليه آية قط حتى قالوا: لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه وذلك لفرط عنادهم وتمايههم في التمرد وانهماكهم في الغي ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ أي: هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به يعني: أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿فانتظروا﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لما يفعل الله بكم لعناكم وجحوبكم الآيات. سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون، ثم رحمهم بالحيا، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله ﷺ ويكيدونه.

وَإِذَا أَنَا أَنَا نَاسٌ رَحِمًا مِنْ بَعْدِ مَرَّةٍ سَنَنَهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا نَكُرُّونَ ﴿١١﴾

وإذا الأولى للشرط والآخرة جوابها وهي للمفاجأة، والمكر إخفاء الكيد وطيه من الجارية الممكورة المطوية الخلق، ومعنى ﴿مستهم﴾ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم.

فإن قلنت: ما وصفهم بسرعة المكر فكيف صح قوله ﴿أسرع مكرًا﴾؟ قلنت: بلى قلت على ذلك كلمة المفاجأة كانه قال: وإذا رحمانهم من بعد ضراء فاجؤا وقوع المكر منهم وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا رؤوسهم من مس الضراء ولم يتلبثوا ريثما يسيفون غصتهم والمعنى: أن الله

= البلوغ غاية الابتلاء، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه مغيباً، واعترضت هذا الاستدلال فيما سلف، بأن المجعول غاية هو حمله ما في حيز، حتى من البلوغ مقروناً بإيناس الرشد، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الابتلاء، بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل، والآخر بعد فلا يحصل المجموع إلا بعد الابتلاء، ويوضح ذلك هذه الآية، فإنه تعالى جعل غاية تيسيرهم في الفلك كونهم فيها مضاعفاً إلى ما ذكر معه، ونحن نعلم أن كونهم في الفلك، وذلك أحد ما جعل غاية متقدماً على التيسير، وإن كان المجموع واقعاً، كوقوع الحادثة بجملة ما بعد الكون في الفلك، والله أعلم، وإنما بسطت القول ههنا لفواته، ثم جئنا بما مضى عهداً.

(1) رواه مسلم في كتاب: الإيمان، باب: بيان كفر من قال: مطرفاً بالبنوء (الحديث رقم: 229).

(2) سورة الجمعة، الآية: 10.

(3) سورة الروم، الآية: 20.

(4) قال أحمد: وهذه أيضاً من نكته التي لا يكتنه حسننها، وقد مر لي قبل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توامتها، وذلك عند قوله تعالى: ﴿وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح، فإن أنستم منهم رشداً، فادفعوا إليهم أموالهم﴾ وقد استدل الزمخشري بها، لابي حنيفة في أن الصغير يتبلى قبل البلوغ أن يسلم إليه قدر من المال يمتحن فيه، خلافاً لمالك، فإنه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ، قال الزمخشري ووجه الاستدلال أن الله تعالى، جعل =

الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَغْبَثَتِ الْأَرْضُ نَجْوَاهَا وَأَرْسَلَتْ
وَكَلِمَاتِهَا أَنَّهُمْ قَدْ كُفِّرُوا عَلَيْهَا أَنَّهُمْ آمُرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا
حَاصِدًا كَأَن لَّمْ تَكُنْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

هذا من التشبيه المركب شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطامًا بعد ما التفت وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه ﴿فاختلط به﴾ فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضًا ﴿أخذت الأرض زخرفها وأزينت﴾ كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكستتها وتزينت بغيرها من ألوان الزين، وأصل أزيت تزينت فادغم وبالأصل قرأ عبد الله، وقرئ: وأزيت على أفضلت من غير إعلال الفعل كأغيلت أي: صارت ذات زينة، وأزيان بوزن ابياضت ﴿قاديرون عليها﴾ متمكنون من منفعتها محصولون لثمرتها رافعون لغتها ﴿أتاها أمرنا﴾ وهو: ضرب زرعها ببعض العاهات بعدًا منهم واستيقانهم أنه قد سلم ﴿فجعلناها﴾ فجعلنا زرعها ﴿حصيدًا﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع في قطعه واستئصاله ﴿كان لم تغن﴾ كان لم يغن زرعها أي: لم ينبت على حذف المضاف في هذه المواضع لا بد منه وإلا لم يستقم المعنى، وقرأ الحسن: كان لم يغن بالياء على أن الضمير للمضاف المحذوف الذي هو الزرع، وعن مروان أنه قرأ على المنبر: كان لم تتغن بالأمس من قول الأعشى:

طويل الثواء طويل التغني

والأمس مثل في الوقت القريب كأنه قيل: كان لم تغن آنفًا.

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢﴾

﴿دار السلام﴾ الجنة أضافها إلى اسمه تعظيمًا لها، وقيل: السلام السلامة؛ لأن أهلها سالمون من كل مكروه، وقيل: لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم ﴿إلا قبيلاً سلاماً سلاماً﴾⁽³⁾ ﴿ويهدي﴾ ويوفق ﴿من يشاء﴾ وهم الذين علم أن اللطف يجدي عليهم؛ لأن مشيئته تابعة لحكمته ومعناه: يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون.

لَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشِرْكٍَ وَلَا كُفْرًا وَلَا كَرِهُوا لِمَنْ كَرِهَ اللَّهُ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَلَا يَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَيُجْزَوْنَ جَزَاءً سَنِيئًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

للفلك أيضاً؛ لأن الفلكي يدل عليه ﴿جاءتها﴾ جاءت الرياح الطيبة أي تلقتها، وقيل: الضمير للفلك من كل مكان من جميع أمكنة الموج ﴿أحيط بهم﴾ أي: أهلكوا، جعل إحاطة العدو بالحي مثلاً في الهلاك ﴿مخلصين له الدين﴾ من غير إشراك به؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه ﴿لئن أنجيتننا﴾ على إرادة القول، ولأن دعوا من جملة القول.

لَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ النَّاسِ إِنَّكُمْ بِبَيْتِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّنَا مَرَجِعُكُمْ فَتَبَيَّنُّكُمْ يَوْمَ كُنْتُمْ تَدْمُرُونَ ﴿١٢﴾

﴿يبغون في الأرض﴾ يفسدون فيها ويعبثون متراقين في تلك المعنيين فيه من قولك: بغى الجرح إذا ترامى إلى الفساد.

فإِنْ قُلْتُمْ: فما معنى قوله: ﴿بغير الحق﴾ والبغي لا يكون بحق؟ قُلْتُمْ: بلى وهو: استيلاء المسلمين على أرض الكفرة وهدم دورهم وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم كما فعل رسول الله ﷺ ببني قريظة. قرئ: متاع الحياة الدنيا بالنصب.

فإِنْ قُلْتُمْ: ما الفرق بين القراءتين؟ قُلْتُمْ: إذا رفعت كان المتاع خبيراً للمبتدأ الذي هو بغيكم، وعلى أنفسكم صلته كقوله: نبغي عليهم، ومعناه: إنما بغيكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم يعني: بغى على بعض منفعة الحياة الدنيا لا بقاء لها، وإذا نصبت فعلى أنفسكم خبر غير صلة معناه: إنما بغيكم وبال على أنفسكم ومتاع الحياة الدنيا في موضع المصدر المؤكد كأنه قيل: تتمتعون متاع الحياة الدنيا، ويجوز أن يكون الرفع على هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام، وعن النبي ﷺ أنه قال: «لا تمكر ولا تعن مكرًا، ولا تبغ ولا تغن باغيًا، ولا تنكث ولا تعن ناكثًا، وكان يتلوها»⁽¹⁾. وعنه: عليه الصلاة والسلام: «أسرع الخير ثوابًا صلة الرحم، وأعجل الشر عقابًا البغي واليمين الفاجرة»⁽²⁾. وروي «ثنتان يعجلها الله تعالى في الدنيا البغي، وعقوق الوالدين»⁽³⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: لو بغى جبل على جبل لكد الباغي⁽⁴⁾، وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه.

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة فاربع فخير فعال المرء أعمله فلو بغى جبل يومًا على جبل لاندك منه أعاليه وأسفله وعن محمد بن كعب: ثلاث من كن فيه كن عليه: البغي والنكث والمكر قال الله تعالى: ﴿إنما بغيكم على أنفسكم﴾.

إِنَّ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتٌ

(1) رواه الحاكم في المستدرک 338/2.

(2) رواه أبو يعلى في مسنده (الحديث رقم: 4512).

(3) رواه البخاري في الأدب المفرد 2/48 باب: البغي (الحديث رقم: 501).

(4) رواه البيهقي في الشعب، باب: في تحريم اعراض الناس (الحديث رقم: 6693).

(5) سورة الواقعة، الآية: 26.

كَانَتْ أَغْشِيَتْ وَجْهَهُمْ وَظَلَمًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا أَوْلَيْتَكَ أَحْسَبُ النَّارَ
هَمْ فِيهَا حَلِيلُونَ (٧٧).

﴿الحسنى﴾ المثوبة الحسنى ﴿وزيادة﴾ وما يزيد على المثوبة وهي التفضل ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ويزيدهم من فضله﴾ (١) وعن علي رضي الله عنه: الزيادة غرقه من لؤلؤة واحدة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الحسنى الحسنة والزيادة عشر أمثالها، وعن الحسن رضي الله عنه: عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، وعن مجاهد رضي الله عنه: الزيادة مغفرة من الله ورضوان، وعن يزيد بن شجرة: الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ما تريدون أن أمطرکم؛ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرتهم، وزعمت المشبهة والمجبرة: أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى، وجاءت بحديث مرفوع: «إذا نزل أهل الجنة الجنة نوبوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه» (٢) ﴿ولا يرهق وجوههم﴾ لا يغشاهما ﴿قتر﴾ غبرة فيها سواد ﴿ولا نلة﴾ ولا أثر هوان وكسوف بال والمعنى: لا يرهقهم ما يرهق أهل النار إنكاراً بما ينقذهم منه برحمته إلا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وترهقهم نلة﴾ (٣).

فإن قلت: ما وجه قوله: ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها﴾ وكيف يتلاءم؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون ﴿والذين كسبوا﴾ معطوفاً على قوله: ﴿الذين أحسنوا﴾ كانه قيل: وللذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وإما أن يقدر وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها على معنى: جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلها لا يزداد عليها وهذا أوجه من الأول؛ لأن في الأول عطفاً على عاملين وإن كان الأخفش يجيزه، وفي هذا دليل على أن المراد بالزيادة الفضل؛ لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله، وقرئ: يرهقهم نلة بالياء، ﴿من الله من عاصم﴾ أي: لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ﴿مظلماً﴾ حال من الليل، ومن قرأ قطعاً بالسكون من قوله: ﴿يقطع من الليل﴾ (٤) جعله صفة له وتعضده قراءة أبي بن كعب: كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم.

فإن قلت: إذا جعلت مظلماً حالاً من الليل فما العامل فيه؟ قلت: لا يخلو إما أن يكون أغشيت من قبل إن من الليل صفة لقوله: ﴿قطعاً﴾ فكان إفضاؤه إلى الموصوف كإفضائه إلى الصفة، وإما أن يكون معنى الفعل في من الليل.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ
فَزَيْلَانَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائِهِمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارٌ تَقْبَدُونَ (٧٨).

﴿مكانكم﴾ الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم و ﴿انتم﴾ أكد به الضمير في مكانكم لسنده مسد قوله الزموا ﴿وشركاؤكم﴾ عطف عليه، وقرئ: وشركاءكم على أن الواو بمعنى: مع والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل ﴿فزيلنا بينهم﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا أقرانهم والوصل التي كانت بينهم في الدنيا، أو فباعنا بينهم بعد الجمع بينهم في الموقف. وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم كقوله تعالى: ﴿ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون، ومن دون الله قالوا ضلوا عننا﴾ (٥) وقرئ: فزايلا بينهم كقولك: صاعر خذه وصعره وكالتمه وكلمته ﴿ما كنتم إيانا تعبدون﴾ إنما كنتم تعبدون الشياطين حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فاطعتموهم.

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ (٧٩).

﴿إن كنا﴾ هي المخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينها وبين النافية وهم: الملائكة والمسيح ومن عبده من نون الله من أولي العقل، وقيل: الأصنام ينطقها الله عز وجل فتشاهفهم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وعلقوا بها اطماعهم.

هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ
وَمَنْ عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَنْتَوُونَ (٨٠).

﴿هنالك﴾ في ذلك المقام وفي ذلك الموقف، أو في ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ﴿تبلوا كل نفس﴾ تختبر وتدوق ﴿ما أسلفت﴾ من العمل فنعرف كيف هو؟ أقبيح أم حسن، أنافع أم ضار، أمقبول أم مردود؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ليكتنه حاله ومنه قوله تعالى: ﴿يوم تبلى السرائر﴾ (٦) وعن عاصم: تبلو كل نفس بالنون ونصب كل أي: نخبرها باختبار ما أسلفت من العمل فنعرف حالها بمعرفة حال عملها إن كان حسناً فهي سعيدة وإن كان سيئاً فهي شقية، والمعنى نفل بها كما فعل الخابر كقوله تعالى: ﴿لبيئلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ (٧) ويجوز أن يراد نصب بالبلاء وهو: العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر، وقرئ: تتلو أي: تتبع ما أسلفت؛ لأن عمله هو الذي يهديه إلى طريق الجنة، أو إلى طريق النار، أو تقرأ في صحيفتها ما قدمت من خير أو شر ﴿مولاهم الحق﴾ ربهم الصادق ربوبيته؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة، أو الذي يتولى حسابهم وثوابهم العدل الذي لا يظلم أحداً، وقرئ: الحق بالفتح على

(1) سورة النساء، الآية: 173.

(2) رواه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى (الحديث رقم: 448).

(3) سورة عبس، الآية: 41.

(4) سورة هود، الآية: 81.

(5) سورة غافر، الآيات: 73 و74.

(6) سورة الطارق، الآية: 9.

(7) سورة هود، الآية: 7.

فإن قُلْتَ: كيف قيل لهم: ﴿هل من شركائكم من يبدو الخلق ثم يعيده﴾ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قُلْتَ: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن دفعه دافع كان مكابراً راداً للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لنبيه ﷺ: ﴿قل الله يبدو الخلق ثم يعيده﴾ فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب يعني: أنه لا يدعهم لجأهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فلكم عنهم. يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين. ويقال:

هدى بنفسه بمعنى: اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى: اشتري ومنه قوله: ﴿أمن لا يهدي﴾ وقرئ: لا يهدي بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال والأصل يهتدي فادغم وفتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها، وقرئ: إلا أن يهدي من هداه وهداه للمبالغة ومنه قولهم: يهتدي ومعناه: أن الله وحده هو الذي يهدي للحق بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التي نصبها لهم وبما لطف بهم ووقفهم والهمهم وأخطر ببالهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير يهدي إلى الحق مثل هداية الله. ثم قال: أقمن يهدي إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع أم الذي لا يهدي أي: لا يهتدي بنفسه، أو لا يهدي غيره إلا أن يهديه الله، وقيل: معناه: أم من لا يهتدي من الأوثان إلى مكان فينتقل إليه ﴿إلا أن يهدي﴾ إلا أن ينقل، أو لا يهتدي ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديه ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ بالباطل حيث تزعمون أنهم أنداد لله.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يَقِينُ مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وما يتبع أكثرهم﴾ في إقرارهم بالله ﴿إلا ظناً﴾؛ لانه قول غير مستند إلى برهان عندهم ﴿إن الظن﴾ في معرفة الله ﴿لا يغني من الحق﴾ وهو: العلم ﴿شيئاً﴾ وقيل: وما يتبع أكثرهم في قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن، والمراد بالأكثر الجميع ﴿إن الله عليهم﴾ وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء. وقرئ: تفعلون بالتاء.

وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يَتْرَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ مَصْدِقَ أَلْحَىٰ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقْتُلُ الْكُفْرَ لَا رَبَّ لِيَوْمِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾

﴿وما كان هذا القرآن﴾ افتراء ﴿من دون الله ولكن﴾ كان ﴿مصدق الذي بين يديه﴾ وهو: ما تقدمه من الكتب المنزلة؛ لانه معجز لونها فهو عبارة عليها وشاهد لصحتها لا يؤمنون.

تأكيد قوله: ﴿ردوا إلى الله﴾ كقولك: هذا عبد الله الحق لا الباطل، أو على المدح كقولك: الحمد لله أهل الحمد ﴿ووصل عنهم ما كانوا يفترون﴾ وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله، أو بطل عنهم ما كانوا يخلقون من الكذب وشفاعة الآلهة.

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ سَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٨﴾

﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي: (١) يرزقكم منهما جميعاً لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة ليفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته ﴿ومن يملك السمع والأبصار﴾ من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سويها عليه من الفطرة العجيبة، أو من يحميها ويحصنها من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال وهما لطيفان يؤذيها أدنى شيء بكلايته وحفظه ﴿ومن يدير الأمر﴾ ومن يلي تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصيص ﴿أفلا تتقون﴾ أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال.

فَلَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُكُمْ نِعْمَةً بَعْدَ الْحَرِّ إِنَّ الضَّلَالَاتِ لَأَنَّ ضَرْبُوتَ ﴿٣٩﴾

﴿لكم﴾ إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله ﴿وبكم الحق﴾ الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر ﴿فمما﴾ بعد الحق إلا الضلال، يعني: أن الحق والضلال لا واسطة بينهما، فمن تخطى الحق وقع في الضلال ﴿فإنني تصرفون﴾ عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء.

كَذَلِكَ حَفَّتْ كَيْدُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٠﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ إِلَى الْخَلْقِ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ أَنْ تُؤْفَكُوا ﴿٤١﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الضَّالِّينَ ﴿٤٢﴾ قُلْ كَيْفَ نَحْكُمُكُمْ

﴿كذلك﴾ مثل تلك الحق ﴿حققت كلمت ربك﴾ أي: كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق فكذلك حق كلمت ربك ﴿على الذين فسقوا﴾ أي: تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه و﴿أنهم لا يؤمنون﴾ بدل من الكلمة أي: حق عليهم انتفاء الإيمان وعلم الله منهم ذلك، أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان وأن إيمانهم غير كائن، أو أراد لكلمة العدة بالعذاب و﴿أنهم لا يؤمنون﴾ تعليل بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

(1) قال أحمد: وهذه الآية كافة لوجه القدرية الزاعمين، أن الأرزاق

= العبد لنفسه، وهو: الحرام، وهذه الآية ناعية عليهم هذا الشرك

منقسمة، فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال، ومنها ما رزقه =

الخفي لو سمعوا، أقاتت تسمع الصم، ولو كانوا لا يعقلون.

كقوله تعالى: ﴿هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ (1) وقرئ: ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب على ﴿ولكن هو تصديق... وتفصيل﴾ ومعنى: وما كان أن يفترى، وما صح وما استقام وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى ﴿وتفصيل الكتاب﴾ وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع من قوله: ﴿كتاب الله عليكم﴾ (2).

فإن قُلْت: بيم اتصل قوله: ﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾؟ قُلْت: هو: داخل في حيز الاستدراك وأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الرب كائناً من رب العالمين، ويجوز أن يراد، ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلاً منه لا ريب في ذلك، فيكون من رب العالمين متعلقاً بتصديق وتفصيل أم يكون لا ريب فيه اعتراضاً كما تقول: زيد لا شك فيه كريم.

أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُهُمْ فَلَمْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ نَّجِيَةٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَفْضَلُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾.

﴿أم يقولون افتراه﴾ بل يقولون اختلقه على أن الهمة تقرير لإلزام الحجة عليهم، أو إنكار لقولهم واستبعاد، والمعنيان متقاربان ﴿قل﴾ إن كان الأمر كما تزعمون ﴿فأتوا﴾ أنتم على وجه الافتراء ﴿بسورة مثله﴾ فأنتم مثلي في العربية والفصاحة ومعنى: بسورة مثله أي: شبيهة به في البلاغة وحسن النظم، وقرئ: بسورة مثله على الإضافة أي: بسورة كتاب مثله ﴿وادعوا﴾ من دون الله ﴿من استطعتم﴾ من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله يعني: أن الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره فلا تستعينوه وحده ثم استعينوا بكل من دونه ﴿إن كنتم صادقين﴾ أنه افتراه.

بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ لَمَّا بَأْتَهُمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾.

﴿بل كذبوا﴾ بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن وفاجؤه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشيء على التقليد من الحشوية إذا أحسن بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه وإن كانت أضوا من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة أنكرها في أول وهلة واشماز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد؛ لأنه لم يشعر قلبه إلا بصحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب.

فإن قُلْت: ما معنى التوقع في قوله: ﴿ولما ياتهم تأويله﴾؟ قُلْت: (3) :معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل تقليداً للآباء، وكذبوه بعد التدبر تمرداً وعناداً، فذمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كثر عليهم التحدي ورازوا قواهم في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله فكذبوا به بغياً وحسداً ﴿كذلك﴾ أي: مثل ذلك التكذيب ﴿كذب الذين من قبلهم﴾ يعني: قبل النظر في معجزات الأنبياء، وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ولكن قلدوا الآباء وعاندوا، وقيل: هو في الذين كذبوا وهم شاكون، ويجوز أن يكون معنى ﴿ولما ياتهم تأويله﴾ ولم ياتهم بعد تأويل ما فيه من الأخبار بالغيوب أي: عاقبته حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق؟ يعني: أنه كتاب معجز من جهتين: من جهة إعجاز، ونظمه ومن جهة ما فيه من الأخبار بالغيوب، ففسرعوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز، وقبل أن يخبروا أخباره بالمغيبات وصدقه وكذبه.

وَمَنَّهُم مَّن يُّؤْمِنُ بِهِ، وَمَنَّهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُنْفِرِينَ ﴿٤٠﴾.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكنه يعاند بالتكذيب، ومنهم من يشك فيه لا يصدق به، أو يكون للاستقبال أي: ومنهم من سيؤمن به، ومنهم من سيصر ﴿وربك أعلم بالمفسدين﴾ بالمعاندين، أو المصريين.

وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ رِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلْتُمْ وَأَنتُمْ بَرِيءٌ مِّمَّا عَمَلُوا ﴿٤١﴾.

﴿وإن كذبوك﴾ وإن تموا على تكذيبك ويشتت من إجابتهم فنبأهم وخلمهم فقد أعذرت كقوله تعالى: ﴿فإن عصوك فقل لاني بريء﴾ (4) وقيل: هي منسوخة بآية السيف.

وَمَنَّهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَنَّهُم مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾.

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال: أطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صممهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في

= للمكذب، فجاءت كلمة لما مشعرة بانهم قد أحاطوا بعلمه، حتى تنحس أعداؤهم، ويتحقق شقاؤهم، والله أعلم.

(4) سورة الشعراء، الآية: 216.

(1) سورة فاطر، الآية: 31.

(2) سورة النساء، الآية: 24.

(3) قال احمد: وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما يوم عذراً ما =

فإن قُلْتُ: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين فما معنى ثم؟ قُلْتُ: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها ونتيجتها وهو العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون، وقرأ ابن أبي عبلة ثم: بالفتح أي: هناك، ويجوز أن يراد أن الله مؤدِّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة حين ينطق جلودهم والسننهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَيُرْوَدُ أَنَّ هَذَا الرَّوَدَ إِذَا كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ﴿١٨﴾.

﴿ولكل أمة رسول﴾ يعث إليهم لينبئهم على التوحيد ويدعوهم إلى دين الحق ﴿فإذا جاء﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه ﴿قضى بينهم﴾ أي بين النبي ومكذبيه ﴿بالقسط﴾ بالعدل فإنجى الرسول وعذب المكذبون كقوله: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾⁽¹⁾ ولكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان كقوله تعالى: ﴿وجيء بالنبیین والشهداء وقضى بينهم بالحق﴾⁽²⁾ ﴿مضى هذا الوعد﴾ استعجال لما وعدوا من العذاب استبعاداً له.

قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا إِلَهٌ مَّا سَاءَ إِلَهُ مَا سَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أَجَلٍ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعِينُونَ ﴿١٩﴾ قُلْ أَنزَلْنَاهُ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قَدْرًا بَيِّنَاتٍ أَوْ تَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُونَ مِنِّي الْآمِرُونَ ﴿٢٠﴾ أَنزَلْنَاهُ إِذَا مَا وَقَعَ مَأْسُكُمْ بِهِمْ مَا لَكُم مَّا لَكُم بِمَدِّ قَدْرًا بَيِّنَاتٍ ﴿٢١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ مَلَّ تُجْرُونَ إِلَّا يَمَّا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٢﴾

﴿لا أملك لنفسي ضراً﴾ من مرض أو فقر ﴿ولا نفعا﴾ من صحة أو غنى ﴿إلا ما شاء الله﴾ استثناء منقطع أي: ولكن ما شاء الله من ذلك كائن، فكيف أملك لكم الضر وجلب العذاب؟ ﴿لكل أمة أجل﴾ يعني: أن عذابكم له أجل مضروب عند الله وحد محدود من الزمان ﴿إذا جاء﴾ تلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة فلا تستعجلوا، وقرأ ابن سيرين: فإذا جاء آجالهم ﴿بيئاتاً﴾ نصب على الظرف بمعنى: وقت بيات.

فإن قُلْتُ: هلا قيل ليلاً أو نهاراً؟ قُلْتُ: لأنه أريد إن اتاكم عذابه وقت بيات فيبيتم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون كما يبيت العدو المباغت، والبيات بمعنى: التبييت كالسلام بمعنى: التسليم، وكذلك قوله: ﴿نهاراً﴾ معناه في وقت أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب ونحوه: ﴿بيئاتاً وهم نائمون﴾⁽³⁾ ﴿ضحى وهم يلعبون﴾⁽⁴⁾ الضمير في ﴿منه﴾ للعذاب والمعنى: أن العذاب كله مكروه مَرِّ المذاق موجب للنفار، فأى شيء يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال، ويجوز أن يكون معناه:

صماخه ذوي الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر. وأتخسب أنك تقدر على هداية العمى؟ ولو انضم إلى العمى وهو فقد البصر فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذي له في قلبه بصيرة قد يحس ويتظن، وأما العمى مع الحس فجهد البلاء، يعني: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول وقوله ﴿أفانت. أفانت﴾ دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوب العقل حديدي السمع والبصر راجحي العقل إلا هو وحده.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا شَيْئًا وَلَكِنَّ كَثِيرًا أُنْسَهُمْ بِظُلْمِهِ ﴿٢٣﴾.

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ أي: لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإنزال الكتب. ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب، ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين يعني: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لا حتى بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سبباً فيه.

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَانَ رُبُّهُمْ رَبًّا لَّا يَسْتَأْذِنُ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَّعَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَبِينَ ﴿٢٤﴾.

﴿إلا ساعة من النهار﴾ يستقربون وقت لبثهم في الدنيا، وقيل: في القبور لهول ما يرون ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعرف بعضهم بعضاً كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً وذلك عند خروجهم من القبور، ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم.

فإن قُلْتُ: كان لم يلبثوا؟ و﴿يتعارفون﴾ كيف موقعهما؟ قُلْتُ: أما الأولى: فحال من هم أي: يحشرهم مشهين بمن لم يلبث إلا ساعة، وأما الثانية: فيما أن تتعلق بالضرب، وإما أن تكون مبينة لقوله: ﴿كان لم يلبثوا إلا ساعة﴾ لأن التعارف لا يبقى مع طول العهد وينقلب تناكراً ﴿قد خسروا﴾ على إرادة القول أي: يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم، والمعنى: أنهم وضعوا في تجارتهم وبيعهم الإيمان بالكفر ﴿وما كانوا مهتدين﴾ للتجارة عارفين بها، وهو: استثناء فيه معنى التعجب كأنه قيل: ما أخسروهم.

وَأَمَّا رَبُّنَا كَعَمِّ أَدَّى نَوْمُهُمْ أَوْ نَوْمِكَ فَإِنَّا نَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ سَابِقٌ عَلَىٰ مَا يَمْكُرُونَ ﴿٢٥﴾.

﴿فإلينا مرجعهم﴾ جواب ﴿نتوفينك﴾ وجواب ﴿نرينك﴾ محذوف كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك أو نتوفينك قبل أن نرينك فنحن نرينك في الآخرة.

(3) سورة الاعراف، الآية: 97.

(4) سورة الاعراف، الآية: 98.

(1) سورة الإسراء، الآية: 15.

(2) سورة الزمر، الآية: 69.

التعجب كأنه قيل: أي شيء هول شديد يستعجلون منه، ويجب أن تكون من للبيان في هذا الوجه وقيل: الضمير في منه لله تعالى.

فإن قُلْتُ: بم تعلق الاستفهام وأين جواب الشرط؟ قُلْتُ: تعلق بأرايتم؛ لأنَّ المعنى: أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون؟ وجواب الشرط محذوف وهو: تندموا على الاستعجال أو تعرفوا الخطأ فيه.

فإن قُلْتُ⁽¹⁾: فهلا قيل ماذا تستعجلون منه؟ قُلْتُ: أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو: الإجماع؛ لأنَّ من حق المجرم أن يخاف التعذيب على إجرامه ويهلك فزعاً من مجيئه وإن أبطل فضلاً أن يستعجله، ويجوز أن يكون ماذا يستعجل منه المجرمون جواباً للشرط كقولك: إن أتيتك ماذا تطعمني، ثم تعلق الجملة بأرايتم وأن يكون **﴿إثم إذا ما وقع أمنتم به﴾** جواب الشرط، وماذا يستعجل منه المجرمون اعتراضاً والمعنى: إن اتاكم عذابه أمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان، وبخول حرف الاستفهام على ثم كدخوله على الواو والفاء في قوله: **﴿أفأمن أهل القرى﴾** **﴿وأمن أهل القرى﴾**⁽²⁾ **﴿الآن﴾** على إرادة القول أي: قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب الآن أمنتم به **﴿وقد كنتم به تستعجلون﴾** يعني: وقد كنتم به تكذبون؛ لأنَّ استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار، وقرئ: **﴿الآن﴾** بحذف الهمة التي بعد اللام والقاء حركتها على اللام. **﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾** عطف على قيل المضمرة قبل **﴿الآن﴾**.

﴿وَسَيَسْأَلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَشْرَ بِمُعْجِزِينَ﴾⁽³⁾.

﴿ويستنبئونك﴾ ويستخبرونك فيقولون **﴿أحق هو﴾** وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء، وقرأ الأعمش: **﴿أحق هو﴾** وهو أدخل في الاستهزاء لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل وملك أن اللام للجنس فكانه قيل: أهو الحق لا الباطل، أو هو الذي سميتموه الحق والضمير للعذاب الموعود و **﴿أي﴾** بمعنى: نعم في القسم خاصة كما كان هل بمعنى: قد في الاستفهام خاصة، وسمعتهم يقولون في التصديق: أو فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده **﴿وما أنتم بمعجزين﴾** بفاننتين العذاب وهو لاحق بكم لا محالة.

رَوَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَآتَتْتَ بِهٖ. وَأَسْرَأُ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُئِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يظَلْمُونَ﴾⁽⁴⁾.

﴿ظلمت﴾ صفة لنفس على ولو أن لكل نفس ظالمة **﴿وما في الأرض﴾** أي: ما في الدنيا اليوم من خزائنها

وأموالها جميع منافعها على كثرتها **﴿لافتدت به﴾** لجعلته فدية لها يقال: فداه فافتدى، ويقال: افتداه أيضاً بمعنى فداه **﴿واسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾**؛ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحسبوه ولم يخطر ببالهم، وعابنوا من شدة الأمر وتفاقمه ما سلبهم قواهم، وبهرهم فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً، ولا ما يفعله الجازع سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب كما ترى المقدم للصلب يثخنه ما دهمه من فظاعة الخطب ويغلب حتى لا ينبس بكلمة ويبقى جامداً مبهوتا، وقيل: أسر رؤسائهم الندامة من سفلتهم الذين أضلواهم حياء منهم وخوفاً من توبيخهم، وقيل: أسروها اخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها وإما من قولهم سر الشيء لخالصه، وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة، وقيل: أسروا الندامة أظهروها من قولهم أسر الشيء وأشره إذا أظهره وليس هناك تجلد **﴿وقضي بينهم﴾** أي: بين الظالمين والمظلومين دل على نك نكر الظلم.

آلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ آيَاتٌ وَإِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾⁽⁵⁾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾⁽⁶⁾.

ثم أتبع ذلك نكر الإعلام بأن له الملك كله، وأنه الميثب المعاقب، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق، وهو القادر على الإحياء والإماتة لا يقدر عليهما غيره، وإلى حسابه وجزائه المرجع، ليعلم أن الأمر كذلك فيخاف ويرجى ولا يفتربه المغترون.

يَأْتِيَا النَّاسَ فَنَدَّ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَسَفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهَدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾⁽⁷⁾.

﴿قد جاءتكم موعظة﴾ أي: قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبية على التوحيد **﴿ووه﴾** هو **﴿شفاء﴾** أي: دواء **﴿لما في﴾** صدوركم من العقائد الفاسدة، ودعاء إلى الحق **﴿ورحمة﴾** لمن آمن به منكم.

قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾⁽⁸⁾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ جَمَلَةٌ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ مَا اللَّهُ أَرْسَلَ لَكُمْ مِنْهُ عَلَى اللَّهِ تَقَرُّوتُ﴾⁽⁹⁾.

أصل الكلام بفضل الله وبرحمته فليفرحوا فبذلك فليفرحوا والتكرير للتأكيد والتقرير وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عداهما من فوائد الدنيا فحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه والفاء داخلة لمعنى الشرط كأنه قيل: إن فرحوا بشيء فليخصوها بالفرح فإنه لا مفروح به أحق منهما، ويجوز أن يراد بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا، ويجوز أن يراد قد جاءكم موعظة بفضل الله وبرحمته فبذلك فبمجئها

(2) سورة الاعراف، الآية: 98.

(1) قال احمد: وفي هذا النوع البليغ نكتتان، إحداهما: وضع الظاهر مكان المضمرة، والأخرى: نكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للمصدر، وكلاهما مستقل بوجه من البلاغة، والمبالغة، والله أعلم.

والشان الأمر وأصله الهمز بمعنى: القصد من شأنته شأنه إذا قصدت قصده والضمير في ﴿منه﴾ للشان؛ لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله ﷺ بل هو معظم شأنه، أو للتنزيل كأنه قيل: وما تتلو من التنزيل من قرآن؛ لأن كل جزء منه قرآن، والإضمار قبل الذكر تفخيم له أو لله عز وجل وما ﴿تعملون﴾ أنتم جميعاً ﴿من عمل﴾ أي عمل كان ﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ شاهدين رقباء نحصي عليكم ﴿إذ تفيضون فيه﴾ من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه ﴿وما يعزب﴾ قرئ بالضم والكسر وما يبعد وما يغيب، ومنه: الروض العازب ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ القراءة بالنصب والرفع والوجه النصب على نفي الجنس، والرفع على الابتداء ليكون كلاماً براسه، وفي العطف على محل من مثقال ذرة أو على لفظ مثقال ذرة فتخاً في موضع الجزر لامتناع الصرف إشكالاً؛ لأن قولك لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب مشكل.

فإن قُلْتَ: لم قَدِمَت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ: ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾⁽⁵⁾ قُلْتَ: حق السماء أن تقدم على الأرض ولكنه لما نكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: لا يعزب عنه، لأم ذلك أن قدم الأرض على السماء، على أن العطف بالواو حكمه حكم الثنية.

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾
الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ لَهُمُ النَّجَى فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ﴿١٩﴾

﴿أولياء الله﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وقد فسر ذلك في قوله: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فهو توليهم إياه ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فهو توليه إياهم، وعن سعيد بن جبیر: أن رسول الله ﷺ سئل من أولياء الله؟ فقال: «هم الذين يذكر الله برؤيتهم»⁽⁶⁾ يعني: السمات والهيئات، وعن ابن عباس رضي الله عنه: الإخبات والسكينة، وقيل: هم المتحابون في الله، وعن عمر رضي الله عنه سمعت النبي ﷺ يقول: «إن من عباد الله عبادة ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله». قالوا: يا رسول الله أخبرنا من هم؟ وما أعمالهم، فلعلنا نحبههم؟ قال: «هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور

فليفرحوا، وقرئ: فلتفرحوا بالتاء وهو الأصل والقياس وهي قراءة رسول الله ﷺ فيما روي، وعنه: «لتأخذوا مصافكم»⁽¹⁾ قالها في بعض الغزوات وفي قراءة أبي: فافرحوا ﴿وهو﴾ راجع إلى ذلك. وقرئ: مما تجمعون بالياء والتاء وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ تلا: ﴿قل بفضل الله وبرحمته﴾ فقال: «بكتاب الله والإسلام»⁽²⁾ وقيل: فضله الإسلام ورحمته ما وعد عليه ﴿أرأيتم﴾ أخبروني و ﴿ما أنزل الله﴾ ما في موضع النصب بانزل أو بأرأيتم في معنى أخبروني ﴿فجعلتم منه حراماً وحلالاً﴾ أي: أنزل الله رزقاً حلالاً كله فبعضتموه وقتلتم: هذا حلال، وهذا حرام كقولهم: ﴿هذه أنعام وحرث حجر﴾⁽³⁾ ﴿ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا﴾⁽⁴⁾ ﴿الله أنن لكم﴾ متعلق بأرأيتم، وقل تكرير للتوكيد والمعنى: أخبروني الله أنن لكم في التحليل والتحریم فانتم تفعلون ذلك بإذنه؟ أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه؟ ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار وأم منقطعة بمعنى بل اتفترتون على الله تقريراً للافتراء وكفى بهذه الآية زجراً بليغاً عن التجوز فيما يستل عنه من الأحكام، وباعثة على وجوب الاحتياط فيه، وإن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان، ومن لم يوقن فليتق الله وليصمت وإلا فهو مفتر على الله.

وَعَلَى الَّذِينَ يَتَزَوَّجُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَدُرُّ
نَسِيلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾

﴿يوم القيامة﴾ منصوب بالظن وهو ظن واقع فيه يعني: أي شيء ظن المفترين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه، وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة، وهو وعيد عظيم حيث أبهم أمره، وقرأ عيسى بن عمر: وما ظن على لفظ الفعل ومعناه: وأي ظن ظنوا يوم القيامة وحي به على لفظ الماضي؛ لأنه كائن فكان قد كان ﴿إن الله لنوا فضل على الناس﴾ حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحي وتعليم الحلال والحرام ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُبْعَثُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ شَيْءٍ
دَرَّوْهُ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصَمَّرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي
كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾

﴿وما تكون في شأن﴾ ما نافية والخطاب لرسول الله ﷺ

(4) سورة الأنعام، الآية: 139.

(5) سورة سبأ، الآية: 3.

(6) رواه ابن أبي شيبة.

(1) رواه الترمذي في كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة ص، (الحديث رقم: 3235).

(2) رواه ابن أبي شيبة 501/1 كتاب: فضائل القرآن، باب: في الفضل.

(3) سورة الأنعام، الآية: 138.

الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْمُرُوا إِلَّا الظَّنَّ
وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَخْرُصُونَ ﴿١٦﴾

﴿من في السموات ومن في الأرض﴾ يعني: العقلاء
المميزين وهم الملائكة والثقلان وإنما خصهم ليؤذن أن
هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم وهو سبحانه
وتعالى ربهم، ولا يصلح أحد منهم للربوبية، ولا أن يكون
شريكاً له فيها، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون
له نذاً وشريكاً، وليلد على أن من اتخذ غيره رباً من ملك
أو إنسي فضلاً عن صنم أو غير ذلك فهو مبطل تابع لما
أدى إليه التقليد وترك النظر. ومعنى وما يتبعون شركاء
أي: وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء؛
لأن شركة الله في الربوبية محال ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا ظَنَّهُمْ
أَنَّهُمْ شُرَكَاءُ﴾ ﴿وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَخْرُصُونَ﴾ يحذرون ويقدر
أن تكون شركاء تقديراً باطلاً، ويجوز أن يكون وما يتبع
في معنى الاستفهام يعني: وأي شيء يتبعون وشركاء على
هذا نصب بيدعون وعلى الأول بيتبع، وكان حقه وما يتبع
الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء فاقصر على
أحدهما للدلالة، ويجوز أن تكون ما موصولة معطوفة على
من كأنه قيل: والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله
شركاء أي: وله شركاؤهم. وقرأ علي بن أبي طالب
رضي الله عنه: تدعون بالتاء ووجهه أن يحمل وما يتبع
على الاستفهام أي: وأي شيء يتبع الذين تدعونهم شركاء
من الملائكة والنبیین يعني: أنهم يتبعون الله ويطلبونه فما
لكم لا تفعلون مثل فعلهم كقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
يَدْعُونَ يَتَّبِعُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوسيلة﴾ (8) ثم صرف الكلام عن
الخطاب إلى الغيبة فقال: إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن
ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبیین من الحق.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْهِرًا إِنَّ فِي
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَمِرُونَ ﴿١٧﴾

ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي
يستحق بها أن يوحده بالعبادة بأنه جعل لهم الليل مظلاً
ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردد في
المعاش، والنهار مضيئاً يبصرون فيه مطلب أرزاقهم
ومكاسبهم ﴿لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع معتبر مذكر.

وإنهم لعلى منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا
يحزنون إذا حزن الناس⁽¹⁾. ثم قرأ الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾
نصب أو رفع على المدح أو على الوصف الأولياء أو على
الابتداء والخبر ﴿لَهُمُ الْبَشَرَى﴾ والبشرى في الدنيا ما
بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن
النبي ﷺ: «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى
له»⁽²⁾ وعنه عليه الصلاة والسلام: «ذهبت النبوة وبقيت
المبشرات» وقيل: هي محبة الناس له والذكر الحسن، وعن
أبي ذر: قلت لرسول الله ﷺ: الرجل يعمل العمل لله ويحبه
الناس؟ فقال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»⁽³⁾ وعن عطاء: لهم
البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة، قال الله تعالى:
﴿تَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا
بِالْجَنَّةِ﴾⁽⁴⁾ وأما البشرى في الآخرة: فتلقى الملائكة إياهم
مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض
وجوههم، وإعطاء الصحائف بإيمانهم، وما يقرؤون منها،
وغير ذلك من البشارات ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ لا تغيير
لاقواله ولا إخلاف لمواعيده كقوله تعالى: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ
لَدَيْ﴾⁽⁵⁾ و ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين،
وكلتا الجملتين اعتراض.

وَلَا يَحْزَنُكَ نُوهُنَّ إِنَّ أَلَمْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿١٥﴾

﴿ولا يحزنك﴾ وقرئ: ولا يحزنك من أحزنه
﴿قولهم﴾ تكذيبهم لك وتهديدهم وتشاورهم في تدبير
هلاكك وإبطال أمرك وسائر ما يتكلمون به في شأنك ﴿إِنَّ
العزة﴾ استئناف بمعنى التعليل كأنه قيل: ما لي
لا أحزن فقيل: إن العزة لله جميعاً أي: إن الغلبة والقهر في
ملكة الله جميعاً لا يملك أحد شيئاً منها لا هم ولا غيرهم،
فهو يغلبهم وينصرك عليهم ﴿كتب الله لأغلبن أنا
ورسلي﴾⁽⁶⁾ ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾⁽⁷⁾ وقرأ أبو حيوة: أن
العزة لله بالفتح بمعنى لأن العزة على صريح التعليل، ومن
جعله بدلاً من قولهم ثم أنكروه فالمنكر هو يخرجها لا ما
أنكر من القراءة به ﴿هو السميع العليم﴾ يسمع ما
يقولون ويعلم ما يدبرون ويعززون عليه وهو مكافئهم
بذلك.

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَمَا يَبْصُرُ

= 315/5

(3) رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: إذا أثنى على
الصالح فهي بشرى ولا تصره (الحديث رقم: 6663).

(4) سورة فصلت، الآية: 30.

(5) سورة ق، الآية: 29.

(6) سورة المجادلة، الآية: 21.

(7) سورة غافر، الآية: 51.

(8) سورة الإسراء، الآية: 57.

(1) رواه أبو نعيم في الحلية 5/1، والبيهقي في الشعب، باب: في
مقاربة ومودة أهل الدين فصل في المصافحة والمعانقة عند
الالتقاء، (الحديث رقم: 8998)، رواه ابن حبان في كتاب: البر
والإحسان، باب الصحة والمجالسة، (الحديث رقم: 573)، والحاكم
في المستدرک 4/420.

(2) رواه الترمذي في كتاب الرؤيا، باب قوله: «لهم البشرى في الحياة
الدنيا» (الحديث رقم: 2275)، وابن ماجه في كتاب: تعبير الرؤيا،
باب: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له (الحديث رقم:
3898)، والحاكم في المستدرک 4/391 والإمام أحمد في المسند =

والواو بمعنى: مع يعني فاجمعوا أمركم مع شركائكم وقرأ الحسن: وشركاؤكم بالرفع عطفاً على الضمير المتصل وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام كما تقول: أضرب زيداً وعمرو وقرئ: فاجمعوا من الجمع وشركاءكم نصف للعطف على المفعول، أو لأن الواو بمعنى: مع، وفي قراءة أبي: فاجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم.

فإن قلت: كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء؟ قلت: على وجه التهكم كقوله: ﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيون﴾ (3).

فإن قلت: ما معنى الأمرين أمرهم الذي يجمعونه وأمرهم الذي لا يكون عليهم غمة؟ قلت: أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه يعني: فاجمعوا ما تريون من إهلاكه واحتشدوا فيه وابدلوا وسعكم في كيدي، وإنما قال ذلك إظهاراً لقلّة مبالاته وثقته بما وعده ربه من كلاته وعصمته إياه وأنهم لن يجدوا إليه سبيلاً، وأما الثاني: ففيه وجهان: أحدهما: أن يراد مصاحبته له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم يعني: ثم اهلكوني لئلا يكون عيشكم بسببي غصة وحالكم عليكم غمة أي: غمًا وهمًا، والغم والغمة كالكرب والكربة، والثاني: أن يراد به ما أريد بالأمر الأول، والغمة السترة من غمه إذا ستره ومنها قوله عليه السلام: «ولا غمة في فرائض الله» (4)، أي: لا تستر ولكن يجاهر بها، يعني: ولا يكن قصدكم إلا إهلاكه مستورا عليكم ولكن مكشوفًا مشهورًا تجاهرونني به ﴿ثم افضوا إلي﴾ ذلك الأمر الذي تريدون بي أي: أدوا إليّ قطعه وتصحيحه كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر﴾ (5) أو الرجل غريمه ﴿ولا تنظرون﴾ ولا تمهلوني وقرئ: ثم افضوا إليّ بالفاء بمعنى: ثم انتهوا إليّ بشركم، وقيل: هو من أفضى الرجل إذا خرج إلى القضاء أي: اصحروا به إليّ وأبرزوه لي.

فإن توليتم فما سألنكم من أجرٍ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين (6).

﴿فإن توليتم﴾ فإن عرضتم عن تكديري ونصيحتي ﴿فما سألنكم من أجر﴾ فما كان عندي ما يفركم عني وتتهموني لأجله من طمع في أموالكم وطلب أجر على عظمتكم ﴿إن أجرى إلا على الله﴾ وهو الثواب الذي يثيبني به في الآخرة أي: ما نصحتكم إلا لوجه الله لا لغرض من أغراض الدنيا ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئاً ولا يطلبون به دنيا، يريد أن ذلك مقتضى الإسلام والذي كل مسلم مأمور به،

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ هُوَ الَّذِي لَمْ يَلَمْأْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَنْ يَسْأَلَكُمْ مِنْ شَيْءٍ يَهْدَىٰ أَفْقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٨).

﴿سبحانه﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿هو الغني﴾ علة لنفي الولد؛ لأن ما يطلب به الولد من يلد وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفياً ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولداً ﴿إن عندكم من سلطان بهذا﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقاها أن تتعلق بقوله: إن عندكم على أن يجعل القول مكاناً للسلطان كقولك: ما عندكم بأرضكم موز، كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان ﴿تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ لما نفي عنهم البرهان جعلهم غير عالمين، فدل على أن كل قول لا برهان عليه قائله فذاك جهل وليس يعلم.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩) مَتَّعَ فِي آدِنَا ثُمَّ إِنَّمَا رَمَّحَهُمْ ثُمَّ دُخِبَهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٢٠).

﴿يفترون على الله الكذب﴾ بإضافة الولد إليه ﴿متاع في الدنيا﴾ أي: افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبه النبي ﷺ بالتظاهر به، ثم يلغون الشقاء المؤبد بعده.

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ تِبَاعًا تَوْبًا﴾ إذ قال ليقويه، يتقرب إن كان كبر عبيدك متاعاً وتذكيري بأنك الله فملى الله تركك فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غنة ثم افضوا إليّ ولا نظرون (٢١).

﴿كبر عليكم﴾ عظم عليكم وشق وثقل ومنه قوله تعالى: ﴿وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ (1) ويقال: تعاطمه الأمر ﴿مقامي﴾ مكاني يعني: نفسه كما تقول فعلت كذا لمكن فلان، وفلان ثقيل الظل، ومنه: ﴿ولمن خاف مقام ربه﴾ (2) بمعنى: خاف ربه، أو قيامي ومكثي بين أظهركم مدناً طوياً ألف سنة إلا خمسين عاماً، أو مقامي وتذكيري؛ لأنهم كانوا إذا وعظوا الجماعة قاموا على أرجلهم يعظونهم ليكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعاً، كما يحكى عن عيسى صلوات الله عليه أنه كان يعظ الحواريين قائماً وهم قعود ﴿فاجمعوا أمركم وشركاءكم﴾ من أجمع الأمر وأزمعه إذا نواه وعزم عليه. قال:

هل أغدون يوماً وأمري مجمع

(4) نكره القاضي عياض في الباب الأول من كتاب الشفاء في فصل فصاحته (الزليعي 2/136).

(5) سورة الحجر، الآية: 66.

(1) سورة البقرة، الآية: 45.

(2) سورة الرحمن، الآية: 46.

(3) سورة الاعراف، الآية: 195.

﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ فلما عرفوا أنه هو الحق وأنه من عند الله لا من قبل موسى وهرون ﴿قالوا﴾ لحبهم الشهوات ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذي ليس إلا تميؤها وباطلها.

فإن قلت⁽¹⁾: هم قطعوا بقولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ على أنه سحر. فكيف قيل لهم: اتقولون أسحر هذا؟ قلت: فيه أوجه: أن يكون معنى قوله: ﴿اتقولون للحق﴾ اتعيبونه وتطعنون فيه وكان عليكم أن تدعنوا له وتعظموه من قولهم: فلان يخاف القالة، وبين الناس تقاويل. إذا قال بعضهم لبعض ما يسوءه، ونحو القول الذكر في قوله: ﴿سمعنا فتى يذكرهم﴾⁽²⁾ ثم قال ﴿أسحر هذا﴾ فانكر ما قالوه في عيبه والطعن عليه وأن يحذف مفعول اتقولون وهو ما دل عليه قولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ كانه قيل: اتقولون ما تقولون يعني: قولهم: ﴿إن هذا لسحر مبين﴾ ثم قيل: أسحر هذا وأن يكون جملة قوله: ﴿أسحر هذا﴾ ولا يفلح الساحرون ﴿حكاية لكلامهم كأنهم قالوا: اجتمعا بالسحر تطلبان به الفلاح﴾ ولا يفلح الساحرون ﴿كما قال موسى للسرعة: ﴿ما جئتم به لسحر إن الله سيبيطه﴾⁽³⁾.

قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلَيْنَا عَمَّا وَبَدَّنا عَلَيْهِ مآبِنَا وَتَكُونُ لَنَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَنَا نُوحي بِكُلِّ سَحرٍ عَلَيْكَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَى الْقُوا مَا أُنشِرُ مَثَلَهُمْ ﴿٨٠﴾.

﴿لتلقتنا﴾ لتصرفنا، واللفت والفتل أخوان ومطاوعهما الالتفات والانتقال ﴿وعما وجدنا عليه آباءنا﴾ يعنون عبادة الاصنام ﴿وتكون لكم الكبرياء﴾ أي: الملك؛ لأن الملوك موصوفون بالكبر، ولذلك قيل للملك الجبار، ووصف بالصيد والشوس، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً في قوله:

ملكه ملك رافة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

ينفي ما عليه الملوك من ذلك، ويجوز أن يقصدوا ذمهما وأنهما إن ملكا أرض مصر تجبراً وتكبراً كما قال القبطي لموسى عليه السلام: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾⁽⁴⁾ ﴿وما نحن لكم بمؤمنين﴾ أي: مصدقين لكم فيما جئتما به. وقرئ: يطبع ويكون لكم بالياء.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ قَالَ مُوسَى اتَّقُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُنْصِرُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾.

والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم، ويبرئ ساحتهم، فنكر أن توليهم لم يكن عن تفريط منه في سوق الأمر معهم على الطريق الذي يجب أن يساق عليه، وإنما نك لعنادهم وتمردهم لا غير.

كَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْأُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ جُلُودًا وَاعْرَفَنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ النَّذِيرِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿فكذبوه﴾ فتموا على تكذيبه، وكان تكذيبهم له في آخر المدّة المتطاولة كتكذيبهم في أولها، وذلك عند مشاركة الهلاك بالطوفان ﴿وجعلناهم جلاذيف﴾ يخلفون الهالكين بالغرق ﴿كيف كان عقاب المندرين﴾ تعظيم لما جرى عليهم وتحذير لمن أنذرهم رسول الله ﷺ عن مثله، وتسليته له.

ثُمَّ بَدَأْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسلًا إِلَى قَوْمِهِمْ بِالآيَاتِ فَمَا كَانُوا يَنْتَهِرُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلِ كَذَلِكَ نَطَّعُ عَلَى قُرْبِ الْمُتَعَبِينَ ﴿٧٦﴾.

﴿من بعده﴾ من بعد نوح ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ يعني: هوذا، وصالحاً وإبراهيم ولوطاً وشعيباً ﴿فجاءهم بالبينات﴾ بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فما كانوا ليؤمنوا﴾ فما كان إيمانهم إلا ممتنعاً كالمحال لشدة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق، فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها كان لم يبعث إليهم أحد ﴿كنك نطبع﴾ مثل ذلك الطبع المحكم نطبع ﴿على قلوب المعتنين﴾ والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم؛ لأن الخذلان يتبعه، ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به.

ثُمَّ بَدَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾.

﴿من بعدهم﴾ من بعد الرسل ﴿بآياتنا﴾ بالآيات التسع ﴿فاستكبروا﴾ عن قبولها وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبينها ويتعظموها عن تقبلها ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ كفاراً نوي أثم عظام فلذلك استكبروا عنها واجتروا على ردها.

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ قَالَ مُوسَى اتَّقُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُنْصِرُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾.

(1) قال أحمد: في الفرق بين الوجهين غموض، وإيضاحه أن القول على الوجه الأول وقع كناية عن العيب، فلا يتقاضى مفعولاً، وفي الثاني على أنه يطلب مفعولاً، والله أعلم.

(2) سورة الأنبياء، الآية: 60.

(3) سورة يونس، الآية: 81.

(4) سورة القصص، الآية: 19.

(5) قال أحمد: وليس المراد في القراءة الأولى الإخبار بأن ما جاؤا به سحر خاصة، ولكن مع تزني ما جاء به عن كونه سحراً، وإنما =

= يستفاد ذلك بما في هذا النظم المخصوص من إفادة الحصر، ولو مرت بخاطر الإمام أبي المعالي في مسألة تحريم التكبير، لم يعدل عن الاستشهاد بها على إفادة هذا النظم الحصر، فإننا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه، فإنما أراد إضافة السحر إلى ما جاؤا به محصوراً فيه، حتى لا يتعدى إلى الحق الذي جاء به هو منه شيء، وأما القراءة الثانية، ففيها، والله أعلم إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أولاً اتقولون للحق لما جاءكم أسحر من هذا حكاية لقولهم، ويكون أسحر هذا هو الذي قالوه، ولا يناقض =

وَقَالَ مُوسَىٰ بَقَوْمٍ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَكَلِمَةً يُكَلِّمُوكُمْ إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٤٤﴾

﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ صدقتم به وبآياته ﴿فعلية توكلوا﴾ فإليه أسندوا أمركم في العصمة من فرعون. ثم شرط في التوكل بالإسلام وهو: أَنْ يَسْلَمُوا نَفْسَهُمْ لِلَّهِ أَي: يجعلوها له سالمة خالصة لا حظ للشيطان فيها؛ لأنَّ التوكل لا يكون مع التخليط، ونظيره في الكلام: إن ضربك زيد فاضربه إن كانت بك قوة.

فَقَالُوا عَلَىٰ اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٤٦﴾

﴿فقالوا على الله توكلنا﴾ إنما قالوا ذلك؛ لأنَّ القوم كانوا مخلصين لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلمهم وأجاب دعاءهم ونجاهم، وأهلك من كانوا يخافونه وجعلهم خلفاء في أرضه، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه فعلية برفض التخليط إلى الإخلاص ﴿لا تجعلنا فتننة﴾ موضع فتننة لهم أي: عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا، أو فتننة لهم يفتنون بنا ويقولون لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا.

وَأَرْحَمَةً لِّكَ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَ لِقَوْمِكَ بِعِصْرٍ يُؤْتُونَكَ وَأَجْمَلُوا يُؤْتِكُمْ مِّنْهُ وَأَيُّمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

تبوأ المكان اتخذته مباءة كقولك: وطنه إذا اتخذته وطناً والمعنى: اجعلا بمصر بيوتاً من بيوته مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه ﴿واجعلوا بيوتكم﴾ تلك ﴿قبلة﴾ أي: مساجد متوجهة نحو القبلة وهي: الكعبة، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة، وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة لئلا يظهروا عليهم فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة. فإن قلت: كيف نوع الخطاب فثنى أولاً، ثم جمع، ثم وحد آخرًا؟ قلت: خوطب موسى وهرون عليهما السلام أن يتبأ

﴿ما جئتم به﴾ ما^(١) موصولة واقعة مبتدأ و﴿السحر﴾ خبر، أي: الذي جئتم به هو السحر لا الذي سماه فرعون وقومه سحرًا من آيات الله وقرئ: السحر على الاستفهام فعلى هذه القراءة ما استفهامية أي: أي شيء جئتم به أهو السحر. وقرأ عبد الله: ما جئتم به سحر، وقرأ أبي: ما أتيتم به سحر والمعنى: لا ما أتيت به ﴿إن الله سيبطله﴾ سيمحقه ويظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة ﴿لا يصلح عمل المفسدين﴾ لا يثبت ولا يديمه ولكن يسلب عليه الدمار.

وَيُنذِرُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٨﴾

﴿ويحق الله الحق﴾ ويثبت به ﴿بكلماته﴾ بأوامره وقضائاه وقرئ: بكلمته بامرهم ومشيتهم.

فَأَمَّا إِيثُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن رَّعَوْنَ وَمَلَائِكَةٍ أُنبِئْنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَمَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ يَوْمَئِذٍ نَّبِيًّا ﴿٤٩﴾

﴿فما آمن لموسى﴾ في أول أمره ﴿إلا ذرية من قومه﴾ إلا طائفة من ذراري بني إسرائيل كأنه قيل: إلا أولاد من أولاد قومه، وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفًا من فرعون، ولجأته طائفة من أبنائهم مع الخوف، وقيل: الضمير في قومه لفرعون والذرية، مؤمن آل فرعون، وأسية امرأته، وخازنه، وامرأة خازنه، وما شطته.

فإن قلت: إلام يرجع الضمير في قوله ﴿وملائكهم﴾؟ قلت: إلى فرعون بمعنى: آل فرعون كما يقال: ربيعة ومضر، أو لأنه ذو أصحاب يأمرون له، ويجوز أن يرجع إلى الذرية أي: على خوف من فرعون وخوف من أشراف بني إسرائيل؛ لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفًا من فرعون عليهم وعلى أنفسهم ويدل عليه قوله ﴿أن يفنتهم﴾ يريد: أن يعذبهم ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ لغالب فيها قاهر ﴿وإنه لمر المسرفين﴾ في الظلم والفساد، وفي الكبر والعتق بادعائه الربوبية.

المترافة المتساوية المعاني، وحاصل هذا البحث، أن قول موسى عليه السلام اتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا إنما حكى فيه قولهم، ويرشد إلى ذلك أنه كافاهم عندما أتوا بالسحر بمثل مقالتهم مستفهمًا، فقال: ما جئتم به أسحر على قراءة الاستفهام قرصاً بوفاء على السواء، والذي يحقق لك أن الاستفهام والإخبار في مثل هذا المعنى، مؤداهما واحد، أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام ما جئتم به هو السحر على الوجهين الخبر، والاستفهام على ما اقتضته القراءتان، وهو قول واحد دل على أن مؤدي الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر، وإنما حمل الزمخشري على تأويل القول بالتحبيب، أو إضمار مفعول تقولون استشكل وقوع الاستفهام محكيًا بالقول، والمحكي أولاً عنهم الخبر، وقد أوضحنا أنه لا تنافر، ولا تناهي بين الأمرين، فشد بهذا الفصل على التمسك، فإنه من دقائق النكت، والله الموفق.

ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا: إن هذا لسحر مبين، وذلك، إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً بدواً بالاستفهام على سبيل الاستهتار بالحق، والاستهتار بكونه حقاً، والاستهتار بالحق إنكار له، بل قد يكون الاستفهام في بعض المواطن آت من الإخبار، الا ترى أنهم يقولون في قوله: أنت أم سالم، أبلغ في البت من قوله مخبراً: أنت أم سالم، ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببيت الإنكار، ودعوى أنه سحر، فقالوا إنَّ هذا لسحر مبين، فحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني، وبخبرهم موسى على قولهم الأول، ومعنى العبارتين ومالكهما واحد، وإما إن لا يكونوا قالوا سوى أسحر هذا على سبيل الإنكار حسماً تقدماً، فحكاه الله تعالى عنهم بمأله؛ لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار، وبت القول أنه سحر، وحكى موسى عليه السلام: قولهم بلطفه، ولم يؤده بعبارة أخرى، وحكاية القصص المتلوقة في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة، لا محمل لها سوى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية، فيترجم عنها بالالفاظ =

نعمة الله سبباً في الضلال، فكانهم أوتوها ليضلوا وقوله: ﴿فَلا يُؤْمِنُوا﴾ عطف على ليضلوا، وقوله: ﴿رَبِّنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم﴾ دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه. وقرأ الفضل الرقاشي: أُنكث آتيت على الاستقهام واطمس بضم الميم.

قَالَ قَدْ أُجِيبَ دَعْوَتُكَ فَاَسْتَقِيمًا وَلَا نَتَمَنَّاهُ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ ﴿٤٨﴾.

قري: دعواتكما قيل: كان موسى يدعو وهرون يؤمن، ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان، والمعنى: إن دعاءكما مستجاب وما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿فاستقيما﴾ فاثبتا على ما انتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلاً، ولا تستعجلا، قال ابن جريج: فمكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة ﴿ولا تتبعان سبيل الذين يعلمون﴾ أي: لا تتبعنا طريق الجهلة بعبادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح، ولا تعجلا فإن العجلة ليست بمصلحة، وهذا كما قال لنوح عليه السلام: ﴿إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (2) وقرئ: ولا تتبعان بالنون الخفيفة وكسرهما لالتقاء الساكنين تشبيهاً بنون التثنية وبخفيف التاء من تبع.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمُ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَافِيًا إِذْ أَدْرَكَهُ الْمَرْقَبُ قَالَ مَاسْتَأْنَسُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

قرا الحسن: وجوزنا من أجاز المكان وجوزه وجاوزه وليس من جوز من الذي في بيت الأشعي:

وإذا يجوزها جبال قبيلة

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال: وجوزنا بني إسرائيل في البحر كما قال، كما جوز السكي في الباب فيقول: ﴿فاتبعهم﴾ فلحقهم يقال: تبعته حتى أتبعته، وقرأ الحسن: وعدوا. وقرئ: أنه بالفتح على حذف الباء التي هي صلة الإيمان وأنه بالكسر على الاستئناف بدلاً من أمنت. كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وقاله حين لم يبق له اختيار قط، وكانت المرة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف (3).

لقومهما بيوتاً ويختارها للعبادة وذلك مما يفوض إلى الأنبياء، ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأنك نك واجب على الجمهور، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض تعظيماً لها والمبشر بها.

وَقَالَكَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ مَأْتِيَتُ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٤٨﴾.

الزينة ما يزين به من لباس، أو حلي، أو فرش، أو اثاث، أو غير ذلك، وعن ابن عباس رضي الله عنه: كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معان من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت.

فإن قلت: ما معنى قوله ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾؟ قلت: (1) هو دعاء بلفظ الأمر كقوله: ﴿ربنا اطمس... واشدد﴾ وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبياناته عرضاً مكرراً، وردت عليهم النصائح والمواعظ زماناً طويلاً، وحذرهم عذاب الله وانتقامه، وأندرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين، ورأهم لا يزيون على عرض الآيات إلا كفرًا، وعلى الإنذار إلا استكبارًا، وعن النصيحة إلا نبوءًا، ولم يبق له مطمع فيهم، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا الغي والضلال وأن إيمانهم كالمحال الذي لا يدخل تحت الصحة، أو علم ذلك بوحى من الله، اشتد غضبه عليهم، وأقرط مقته وكراهته لحالهم، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول: لعن الله إبليس، وأحزى الله الكفرة، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة، وأنهم لا يستأملون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه كأنه قال: ليثبوتوا على ما هم عليه من الضلال وليكونوا ضلالاً، وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا، وما عليّ منهم هم أحق بذلك وأحق كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر: إذا ما لم يقبل منه حسرة على ما فاته من قبول نصيحته وحرماً عليه لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه. ومعنى الشد على القلوب الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان ﴿فلا يؤمنوا﴾ جواب الدعاء الذي هو ﴿اشدد﴾ أو دعاء بلفظ النهي، وقد حملت اللام في ليضلوا على التعليل على أنهم جعلوا

(1) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو أنق من دبيب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفًا، ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل، والباطن أن اللام للتعليل، وأن الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن الله إنما أمدهم بالزينة، والأموال، وما يتبعهما من النعم استدراجاً ليزدادوا إثمًا وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم، بقوله: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا﴾ وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أن من الجوار أن يعلي لهم في الضلالة، ويعاقبهم عليها، فهو متبتل لما =

(2) سورة هود، الآية: 46.

(3) قال أحمد: ولقد أنكر منكرًا، وغضب الله ولملائكته، كما يجب لهم، والله الموفق.

(1) قال أحمد: وهذا من اعتزاله الخفي الذي هو أنق من دبيب النمل، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفًا، ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل، والباطن أن اللام للتعليل، وأن الفعل منصوب بها، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن الله إنما أمدهم بالزينة، والأموال، وما يتبعهما من النعم استدراجاً ليزدادوا إثمًا وضلالة، كما أخبر تعالى عن أمثالهم، بقوله: ﴿إنما نملي لهم ليزدادوا إثمًا﴾ وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل، والزمخشري بنى على القاعدة الفاسدة في استحالة ذلك على الله تعالى، لاعتقاده أن من الجوار أن يعلي لهم في الضلالة، ويعاقبهم عليها، فهو متبتل لما =

مَا كُنَّا وَوَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴿١٤﴾.

وكان مطرحة كان على ممر من بني إسرائيل حتى قيل: ﴿لِمَنْ خَلَقَكَ﴾ وقيل ﴿لِمَنْ خَلَقَكَ﴾ لمن يأتي بعدك من القرون. ومعنى كونه آية: أن يظهر للناس عبوديته ومهانتة وإن ما كان يدعيه من الربوبية باطل محال، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عز وجل فما الظن بغيره، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك فلا يجترثوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله. وقرئ: لمن خلقك بالقاف أي: لتكون لخالقك آية كسائر آياته ويجوز أن يراد ليكون طرحك على الساحل وحكك وتمييزك من بين المغرقين لئلا يشتبه على الناس أمرك، ولئلا يقولوا لادعائك العظمة إن مثله لا يغرق ولا يموت آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره، وليعلموا أن ذلك تعدد منه لإمطة الشبهة في أمرك.

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَوْأً حَيْدَى وَرَفَقْتَهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ مَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمْ أَمْرٌ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٥﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَكُنْ مِنَ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَتَدْعَاكَ آيَةُ الْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ ﴿١٦﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٧﴾.

﴿مبوا صدق﴾ منزلاً صالحاً مرضياً وهو: مصر والشام ﴿فما لختلفوا﴾ في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرؤا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة وعلموا أن الاختلاف فيه تفرق عنه، وقيل: هو العلم بمحمد ﷺ واختلاف بني إسرائيل، وهم أهل الكتاب اختلفهم في صفته ونعته وأنه هو، أم ليس به بعد ما جاءهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه كما قال الله تعالى: ﴿الذين آتيناهاهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾⁽³⁾.

فإِنْ قُلْتَ⁽⁴⁾: كيف قال لرسول الله ﷺ ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ مع قوله: في الكفرة ﴿وإنهم لفي شك منه مرئيب﴾⁽⁵⁾ قُلْتَ: فرق عظيم بين قوله: ﴿وإنهم لفي شك منه مرئيب﴾ بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيد والتحقيق، وبين قوله: ﴿فإن كنت في شك﴾ بمعنى الفرض والتمثيل، كأنه قيل: فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان خيلاً من تقديرًا ﴿فأسئل الذين يقرؤون الكتاب﴾ والمعنى: أن الله عز وجل قدّم نكر بني إسرائيل وهم قرأة الكتاب ووصفهم بأن العلم قد جاءهم؛ لأن أمر رسول الله ﷺ

﴿الآن﴾ أتؤمن الساعة في وقت الاضطراب حين أدركك الغرق وأبست من نفسك، قيل: قال ذلك حين الجمه الغرق يعني حين أوشك أن يغرق، وقيل: قاله بعد أن غرق في نفسه، والذي يحكى: أنه حين قال: أمنت، أخذ جبريل من حال البحر قدسه في فيه المغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه، وأما ما يضم إليه من قولهم: خشية أن تدركه رحمة الله، فمن زيادات الباهتين لله وملائكته، وفيه جهالتان: إحداهما: أن الإيمان يصح بالقلب كإيمان الأخرس فحال البحر لا يمنعه، والأخرى: أن من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر؛ لأن الرضا بالكفر كفر ﴿من المفسدين﴾ من الضالين المضلين عن الإيمان كقوله: ﴿الذين كفروا وصنوا عن سبيل الله زيناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾⁽¹⁾ روي أن جبريل عليه السلام أتاه بفتيا: ما قول الأمير في عيد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته وجحد حقه وأدعى السيادة نونه؟ فكتب فرعون فيه يقول: أبو العباس الوليد بن مصعب جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعماه أن يغرق في البحر، فلما أجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرّفه⁽²⁾.

فَأَلَيْمٌ نَتِجَكَ يَدِيكَ لِنُكُوتٍ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَبِيرًا مِنَ آتَائِنَا عَنْ آيَاتِنَا لَنُفِيئُونَ ﴿١٧﴾.

﴿ننجيك﴾ بالتشديد والتخفيف نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر، وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض، وقرئ: ننجيك بالحاء نلقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر. قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور ﴿ببئذك﴾ في موضع الحال أي: في الحال التي لا روح فيك وإنما أنت بدن، أو ببئذك كاملاً سويًا لم ينقص منه شيء ولم يتغير، أو عرياناً لست إلا بدنًا من غير لباس، أو بدرعك، قال عمرو بن معد يكرب:

أعازل شكتي ببني وسيفي وكل مقلص سلس القياد وكانت له درع من ذهب يعرف بها، وقرأ أبو حنيفة رحمه الله: بأبدانك وهو على وجهين: إما أن يكون مثل قولهم: هوى بأجرامه، يعني ببئذك كله وأيضاً بأجزائه، أو يريد بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها ﴿لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ لمن وراءك من الناس علامة وهم: بنو إسرائيل، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأنًا من أن يغرق. وروي أنهم قالوا: ما مات فرعون ولا يموت أبداً، وقيل: أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه

= ليستفيد بسؤالهم علماً لمزيد تعين الإجراء بقوله له: ﴿قل لمن ما في السموات والأرض، قل لله﴾، فأمر بالسؤال، والجواب جميعاً، لكن أقوم وأسلم والله أعلم.

(1) سورة النحل، الآية: 88.

(2) نكره القرطبي في تفسيره 8/241.

(3) سورة البقرة، الآية: 146.

(4) قال أحمد: ولو قال هذا المفسر إن نفي الشك عنه عليه الصلاة

(5) السلام، توطئة لأمره بالسؤال، لتقوم حجته على المسؤولين، لا =

(5) سورة هود، الآية: 110.

التي أهلكناها ثابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعايبة وقت بقاء التكليف ولم تؤخر كما أصر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه لم ﴿فنفثها إيمانها﴾ بأن يقبله الله منها لوقوعه في وقت الاختيار، وقرأ أبي عبد الله: فهلا كانت ﴿إلا قوم يونس﴾ استثناء من القرى؛ لأن المراد أهاليها، وهو استثناء منقطع بمعنى: ولكن قوم يونس لما آمنوا، ويجوز أن يكون متصلاً والجملة في معنى النفي كأنه قيل ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس، وانتصابه على أصل الاستثناء، وقرئ: بالرفع على البذل هكذا روي عن الجرمي والكسائي: روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه، فذهب عنهم مغاضباً، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة، وقيل: قال لهم يونس: إن أجلكم أربعون ليلة، فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك أمنا بك، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخل دخاناً شديداً، ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم، فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين النساء والصبيان وبين الدواب وأولادها، فحنَّ بعضها على بعض، وعلت الأصوات والعجيج وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة، وعن ابن مسعود: بلغ من توبتهم أن ترائوا المظالم حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده، وقيل: خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا: قد نزل بنا العذاب فما ترى؟ فقال لهم: قولوا: يا حي حين لاحي، ويا حي محيي الموتى، ويا حي لا إله إلا أنت، فقالوا، فكشف عنهم، وعن الفضيل بن عياض: قالوا اللهم إن نوبنا قد عظمت وجلت وانت أعظم منها وأجل، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُفْرَهُمْ جِيماً أَفَأَنْتَ تَكْفُرُهُ
الْأَنْسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾.

﴿ولو شاء ربك﴾ مشيئة⁽⁵⁾ القسر والإلجاء ﴿لأمن من في الأرض كلها﴾ على وجه الإحاطة والشمول ﴿جميعاً﴾ مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه، إلا ترى إلى قوله: ﴿أفأنت تكفره الناس﴾ يعني: إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت، وإيلاء الاسم حرف الاستفهام للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور

مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فأراد أن يؤكد علمهم بصحة القرآن وصحة نبوة محمد عليه السلام ويبالغ في ذلك فقال: فإن وقع لك شك فرضاً وتقديراً وسبيل من خالجه شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإماطتها، إماً بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلتها، وإماً بمقابلة العلماء المنهيين على الحق، فسل علماء أهل الكتاب يعني: أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم فضلاً عن غيرك، فالغرض وصف الأخبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى رسول الله لا وصف رسول الله بالشك فيه، ثم قال: ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ أي: ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للمرية ﴿فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كتبوا بآيات الله﴾ أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك والتكذيب بآيات الله، ويجوز أن يكون على طريقة التهيب والإلهاب كقوله: ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾⁽¹⁾ ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾⁽²⁾ ولزيادة التثبيت والعصمة ولذلك قال عليه السلام عند نزوله: «لا أشك ولا أسأل بل أشهد أنه الحق»⁽³⁾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: لا والله ما شك طرفة عين ولا سألت أحداً منهم، وقيل: خطب رسول الله ﷺ والمراد خطاب أمته ومعناه: فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم كقوله: ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾⁽⁴⁾ وقيل: الخطاب للسامع ممن يجوز عليه الشك كقول العرب: إذا عز أخوك فهن، وقيل: إن للنفي أي: فما كنت في شك فاسأل يعني: لا نامرك بالسؤال؛ لأنك شك ولكن لتزداد يقيناً كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعاينة إحياء الموتى، وقرئ: فاستل الذين يقرؤون الكتب.

إِنَّ الْأَبْرَارَ حَفَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَوَجَّهْنَا لَهُمْ
كُلَّ مَأْتٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾.

﴿حقت عليهم كلمة ربك﴾ ثبت عليهم قول الله الذي كتبه في اللوح وأخبر به الملائكة: أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره، وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد تعالى الله عن ذلك.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ أَمَّنتْ فَفَعَّمَهَا بِمَنْهَا إِلَّا قَوْمٌ يُمُوسُّ لَمَّا ءَامَرُوا
كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَيْ حِينٍ ﴿١٧﴾.

﴿فلولا كانت﴾ فهلا كانت ﴿قرية﴾ واحدة من القرى

(1) سورة القصص، الآية: 86.

(2) سورة القصص، الآية: 87.

(3) رواه عبد الرزاق في مصنفه 6/126، (الحديث رقم: 10211).

(4) سورة النساء، الآية: 174.

(5) قال أحمد: وهذا من نسه الاعتزال مخلصاً، وخط الباطل بالحق مدلساً، ولما علم أن الآية تقتضي عدم مشيئة الله تعالى، لإيمان الخلق بصيغة الكلية، وأنه إنما شاء ذلك ممن آمن لا ممن كفر، إذ مقتضى لولا امتناع، وكان ذلك راد لمعتقده الفاسد، إذ يزعمون =

= أن الله تعالى شاء الإيمان من جميع أهل الأرض، فلم يؤمن إلا بعضهم أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر، والإلجاء ليطمئنه له أن المشيئة المرادة في الآية، لم تقع إلا أنا نوافق على أن الله تعالى ما قسر الخلق، ولا سلب اختيارهم بل أمرهم بالإيمان، وخلق لهم اختياراً له، وقصداً، وهذا كما ترى لا يعد في التأويل، بل هو أجدر بالتعطيل، فوجب رده، وإقرار الظاهر على حاله نعوذ بالله من زيغ الشيطان، وإضلاله، والله الموفق.

التي تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم ﴿ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم﴾ وإنما وصفه بالتوفى ليريهم أنه الحقيق بأن يخاف ويتقي فيعبدون ما لا يقدر على شيء ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ يعني: أن الله أمرني بذلك بما ركب في من العقل وبما أوحى إلي في كتابه، وقيل: معناه إن كنتم في شك من ديني وما أنا عليه أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكروا في أمري واقطعوا عني أطماعكم واعلموا اني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولا أختار الضلالة على الهدى كقوله: ﴿قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون﴾ (2) أمرت أن أكون أصله بأن أكون، فحذف الجار وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذي هو حذف الحروف الجارة مع إن وأن، وأن يكون من الحذف غير المطرد وهو قوله: أمرت الخير فاصدع بما تؤمر.

فإن قلت: عطف قوله ﴿وإن أقم﴾ على أن أكون فيه إشكال: لأن أن لا تخلو من أن تكون التي للعبارة أو التي تكون مع الفعل في تأويل المصدر، قلنا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول: لأن عطفها على الموصولة يابى ذلك، والقول بكونها موصولة مثل الأولى لا يساعد عليه لفظ الأمر وهو أقم: لأن الصلة حقها أن تكون جملة تحتل الصدق والكذب قلت: قد سوغ سبويه أن توصل أن بالأمر والنهي وشبه ذلك بقولهم: أنت الذي تفعل، على الخطاب؛ لأن الغرض وصلها بما تكون معه في معنى المصدر، والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال ﴿أقم وجهك﴾ استقم إليه ولا تلتفت يميناً ولا شمالاً و﴿حنيفاً﴾ حال من الدين أو من الوجه.

ولا تلغ من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين ﴿١٦﴾

﴿فإن فعلت﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك، فكنى عنه بالفعل إيجازاً ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ إذا جزء للشرط وجواب لسؤال مقدر كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (3).

وإن بَسَسَكَ اللهُ يَضُرُّكَ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدَكَ بِحَيْرٍ فَلا رادَّ لِضُرِّهِ يَصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٧﴾

اتبع النهي عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر إن الله عز وجل هو الضار النافع الذي إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد فكيف بالجماد الذي لا شعور به، وكذلك إن أرادك بخير لم يرد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه، فكيف بالأوثان فهو

عليه وإنما الشأن في المكره من هو وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه؛ لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان وذلك غير مستطاع للبشر.

وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾

﴿وما كان لنفس﴾ يعني: من النفوس التي علم أنها تؤمن ﴿إلا بإذن الله﴾ أي: بتسهيله وهو منح اللطاف ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ قابل الإن بالرجس وهو الخذلان والنفوس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر كقوله: ﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ (1) وهي الخذلان رجساً وهو العذاب، لأنه سببه، وقرئ: وتجعل بالنون.

قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْبُدُ الَّذِينَ لَا يَأْتُونَكَ بِقُرْبٍ وَلا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾

﴿ماذا في السموات والارض﴾ من الآيات والعبير ﴿وما تغنى الآيات والنذر﴾ والرسائل المنذرون أو الإنذارات ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ لا يتوقع إيمانهم وهم الذين لا يعنون، وقرئ: وما يغني بالياء وما نافية أو استفهامية. فَهَ، يَنْظُرُونَ إِلاَّ مِثْلَ آبَائِهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَاَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

﴿أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ وقائع الله تعالى فيهم كما يقال: أيام العرب لوقائعها.

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾

﴿ثم ننجي رسلنا﴾ معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله: إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم، كانه قيل: نهلك الأمم ثم ننجي رسلنا على حكاية الأحوال الماضية ﴿والذين آمنوا﴾ ومن آمن معهم. كذلك نجى المؤمنين مثل ذلك الإنقاذ ننجي المؤمنين منكم ونهلك المشركين و﴿حقاً علينا﴾ اعتراض يعني: حق ذلك علينا حقاً، وقرئ: نجى بالتشديد.

قُلْ يَكْفُرُ الْإِنْسَانُ إِذْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّهِ فَلَآ أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَأَنْ أَمُرَّ بِجَهَنَّمَ لِلَّذِينَ خَلَقْتُهَا وَإِنِّي لَمُؤْمِنٌ بِالْمُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾

﴿يا أيها الناس﴾ يا أهل مكة ﴿إن كنتم في شك من ديني﴾ وصحته وسداده فهذا ديني فاسمعوا وصفه واعرضوه على عقولكم وانظروا فيه بعين الإنصاف لتعلموا أنه دين لا مدخل فيه للشك، وهو أني لا أعبد الحجارة

الأجر عشر حسنات، بعدد من صدق بيونس وكذب به، وبعد من غرق مع فرعون⁽⁴⁾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة هود عليه السلام مكية

الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ لَدُنْكَ حَكِيمٌ حَبِيرٌ ﴿١﴾

﴿أحكمت آياته﴾ نظمت نظماً رصيناً محكماً لا يقع فيه نقض ولا خلل كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة من حكم بضم الكاف إذا صار حكيماً أي: جعلت حكيمة كقوله تعالى: ﴿آيات الكتاب الحكيم﴾⁽⁵⁾ وقيل: منعت من الفساد من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح قال جرير:

ابني حنيفة أحكموا سفهاءكم
إني أخاف عليكم إن اغضبنا
وعن قتادة: أحكمت من الباطل
﴿ثم فصلت﴾ كما تفصل القلائد بالفرائد من دلائل التوحيد، والأحكام والمواعظ، والقصص، أو جعلت فصولاً، سورة سورة وآية آية، أو فرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد أي: بين ولخص، وقرئ: أحكمت آياته ثم فصلت أي: أحكمتها أنا ثم فصلتها، وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت أي: فرقت بين الحق والباطل.

فإن قلنا: ما معنى ثم؟ قلنا: ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي محكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل، وكتاب خبر مبتدأ محذوف، وأحكمت صفة له، وقوله: ﴿من لدن حكيم خبير﴾ صفة ثانية ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت أي: من عنده إحكامها وتفصيلها وفيه طباق حسن؛ لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها أي: بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهُ إِنَّكُمْ لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾

﴿ألا تعبدوا﴾ مفعول له على معنى: لئلا تعبدوا، أو تكون أن مفسرة؛ لأن في تفصيل الآيات معنى القول كأنه قيل: قال: لا تعبدوا إلا الله، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله.

وَأَنْ أَسْتَعْتَبُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ نُوَوُّوا إِلَيْهِ يَتَّبِعَكُمْ مَنَّا حَسَنًا إِلَيْكَ أَجَلٌ مُسَمًّى وَوُضِعَ لَكَ فِي فَصْلِ فَصْلَةٍ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾
إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها وهو أبلغ من قوله: ﴿إن أردني الله بضر هل هن كاشفات ضرره أو أردني برحمة هل هن ممسكات رحمته﴾⁽¹⁾.

فإن قلنا: لم نذكر المس في أحدهما والإرادة في الثاني؟ قلنا: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا راد لما يريده منهما ولا مزيد لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن نكر المس وهو: الإصابة في أحدهما، والإرادة في الآخر؛ ليدل بما نكر على ما ترك على أنه قد ذكر الإصابة بالخير في قوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ والمراد بالمشيئة: مشيئة المصلحة.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَخِذُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ بَعْثِي لِيُنصِرَكُمْ وَأَخَذُوا لِيَنْصُرَهُمْ وَتُؤْتُوا لَهُمْ خَيْرٌ مِمَّا يَتْلُونَ ﴿٥﴾

﴿قد جاءكم الحق﴾ فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة، فمن اختار الهدى واتباع الحق فما نفع باختيابه إلا نفسه، ومن أثار الضلال فما ضر إلا نفسه، واللام وعلى دلا على معنى النفع والضرر، وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل، وفيه حث على إثبات الهدى وإطراح الضلال مع ذلك ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موكول إلي أمركم وحملكم علي ما أريد، إنما أنا بشير ونذير.

وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٦﴾

﴿واصبر﴾ على دعوتهم واحتمال آذاهم وإعراضهم حتى يحكم الله لك بالنصرة عليهم والغلبة، وروي أنها لما نزلت جمع رسول الله ﷺ الأنصار فقال: ﴿إنكم ستجدون بعدي أثره فاصبروا حتى تلقوني﴾⁽²⁾ يعني: أتي أمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة. قال أنس: فلم نصبر، وروي: أن أبا قتادة تخلف عن تلقي معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار، ثم نخل عليه من بعد فقال له: مالك لم تتلقنا؟ قال: لم تكن عندنا نواب. قال: فأين النواضع؟ قال: قطعناها في طلبك وطلب أبيك يوم بدر، وقد قال ﷺ: يا معشر الأنصار إنكم ستلقون بعدي أثره. قال معاوية: فماذا قال؟ قال: قال: فاصبروا حتى تلقوني، قال: فاصبر. قال: إن نصبر، فقال عبد الرحمن بن حسان:

إلا أبلغ معاوية بن حرب أمير الظالمين لشاكلامي
بأناصبرون فمنظروكم إلى يوم التغابن والخصام⁽³⁾
عن رسول الله ﷺ: من قرأ سورة يونس أعطي من

(1) سورة الزمر، الآية: 38.

(2) رواه البخاري في كتاب: مناقب الأنصار، باب: قول النبي ﷺ

للأنصار: اصبروا حتى تلقوني على الحوض (الحديث رقم: 2792)

(3) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، والثعلبي الزيلعي 142/2.

(4) الحديث رقم: (4756).

(5) سورة يونس، الآية: 1.

ومسلم في كتاب: الإمارة، باب: الأمر بالصبر عند ظلم الولاة =